AVA

by: H. M

م.ره

إهداء:

إلى زهرة الآيفيكا

إلى صديقي: محمد، وعبد السلام

تنويه:

هذه الرواية عمل أدبي بحت، لا تمتّ أحداثها أو شخصياتها أو أفكارها بأي صلة مباشرة أو غير مباشرة إلى أي دولة أو حكومة أو مؤسسة أو جماعة أو طائفة أو دين أو عقيدة أو شخصية حقيقية، سواء كانت معروفة أو غير معروفة.

جميع الأسماء والأماكن والأحداث المذكورة في الرواية من نسج الخيال، وأي تشابه بينها وبين الواقع هو محض صدفة غير مقصودة.

لا تعبّر الآراء أو المواقف أو الأيديولوجيات الواردة في النص عن رأي المؤلف أو موقفه الشخصي أو السياسي أو الديني، وإنما تخدم السياق الفني والدرامي للرواية فقط.

المؤلف يبرئ ذمّته من أي تفسير أو استخدام للنص خارج الإطار الأدبي أو من أي تأويل يُقصد به المساس بالأمن الوطني أو النظام العام أو القيم الدينية أو الاجتماعية.

الفصل الأول: ليلة احترقت فيها السماء

كانت مثل مرايا مكسورة، مفتوحة على آخرها لدرجة أنها كادت لتخرج من مكانها، عيونٌ تعكس الصدمة ببرود غريب، والدهشة بجمود صارخ، والألم... بلا صوت

صوتُ جيادٍ يهز رأسه هزا من داخله، هاتان العينيان ترتجفان تماما مثل ارتجاف يده.

"سيندثر حكمك" ، "سيزول سلطانك"،" أيها الوغد الطاغية"!

كلمات تتردد في دماغه وتهز طبلة أذنه...

مشهد أحصنة قادمة، يقودها سوادٌ من اللحم، لا تظهر ملامحه تحت شمس الزوال كأنه لا ملامح له.

أناس على حافة الطريق متسمرون كالأوتاد، يراقبون أناسا قد قضي عليهم للتو...

تحركت ملامحه فجأة، إلا أن أعماق نظره كانت تنطق بصمت مدوٍ: صدمة لا يمكن معالجتها، ألم مخفي خلف جدار من الفراغ، ودهشة تهز الوعي دون أن تخترق الوجه. كأن عالمه الداخلي قد تجمد فجأة، تاركًا العينين وحدهما لتخبر ما لا يجرؤ القلب على الاعتراف به.

كان شعور فيساكا بالسعادة في البداية قبل لحظات، خالصاً، نقياً، يملأ عينيه بدموع السرور الخفيفة التي لا تسقط، بل تتراكم في أعماقه كبحيرة سرية من العواطف المكبوتة، عواطف يخشى التعبير عنها خوفاً من أن تكشف ضعفه أمام عالم لا يغفر الضعف، كان قد رسم لوحة بها نجوم كثيرة تعلو شجرة تصعد نحو السماء ، بألوان مختلفة مستخلصة من زهور البراري التي يجمعها في رحلاته الوحيدة إلى الغابة، رحلات يبحث فيها عن نفسه بين الأشجار، أو يشتريها من سوق المدينة. وانفجر ضاحكاً، ضحكة خفيفة تخرج من أعماق صدره كتنهد طويل محبوس قبل أن يدخل في دوامة مُهلكة، من الاضطراب النفسي الذي يتولد بداخله كظل شديد السواد أضحى كيانا بداخله، يصارعه على ما تبقى من جسده.

-"رائع! رائع جداً! ستصبح هذه اللوحة أجمل ما رسمته على الإطلاق، ستكون شاهداً على وجودي في هذا العالم الفاني، شاهداً يثبت أنني لست مجرد شبح يتجول في الظلال."

كانت بعض الكلمات منطوقة مسموعة، والأخرى صاخبة، وأخرى صامتة، قُبيلَ أحداثِ ذكريات جالت بخاطره، وكيف ينسى..

في أعماق مدينة "ليريان" الملكية، في بلاد كبيرة حيث توجد بها عدة مدن أخرى أقل منها شأنا، لذا فإنها تعتبر مدينة ذات مكانة مرموقة، في بلد يعدُّ من أقوى البلدان في العالم..

ونتيجة لذلك، فإن ليريان مدينة مزدحمة، تتداخل فيها الأزقة الضيقة كأوردة متشابكة في جسد يئن من الإرهاق التاريخي الذي يثقل كاهله جيلاً بعد جيل.

على أطرافها، كان هناك بيت متواضع يقبع في الظلال الخافتة، بعيداً عن أنظار الملك وجنوده الذين يجوبون الشوارع كذئاب جائعة.

يمر يوم كباقي الأيام على هذا المكان المنعزل، بعيداً عن صخب السوق الرئيسي حيث يتاجر الناس بأحلامهم المكسورة مقابل حفنة من النقود الصدئة التي لا تشتري إلا المزيد من اليأس.

و أمام تلك اللوحة الخشبية الكبيرة، المثبتة على حامل متهالك صنعه بنفسه من أغصان الغابة المجاورة، كانت تلك الغابة التي كانت دائماً ملاذاً له ومصدراً لكوابيسه في آن واحد، حيث تختبئ الذكريات كوحوش تنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض.

يرتدي قميصاً قديماً خاصا برسمه، ملطخاً ببقع الألوان المتناثرة، كان فيساكا شابا في أوائل العشرينيات، بجسد رشيق، كأنه جذع شجرة تعرض لعواصف متكررة من الفقد والخيانة، لكنه يحمل قوة خفية في عضلاته المشدودة، قوة نبتت من سنوات من العزلة والصراع الداخلي الذي يجعله يشعر أحياناً بأنه يعيش حياتين: واحدة خارجية هادئة، وأخرى داخلية عاصفة، أو، مليئة بالعواصف النفسية. بشعره الأسود الذي يتدلى على كتفيه كستارة ليلية تحجب جزءاً من وجهه

الشاحب، الذي يعكس سنوات من الليالي الساهرة حيث يتصارع مع أشباح الماضي، وعينيه الداكنتين تبرقان ببريق غريب، كأنما يحملان سراً دفيناً يأكل من روحه يوماً بعد يوم، سر يجعله يتساءل دائماً عن هويته: هل هو ضحية القدر، أم صانع مصيره؟

............قبل خمس عشرة سنة.................

كان المشهد قاسياً على طفلٍ في الخامسة من عمره، سنّ لا يعرف فيه الإنسان سوى دفء الأذرع التي تحتضنه وبراءة العالم كما يراها من خلف زجاج نافذته الصغيرة.

ذلك الطفل، الذي لم يعرف من الحياة سوى ضحكات والديه، كان يعيش في بيتٍ بسيط لكنه دافئ، تملؤه رائحة الخبز وصوت الحكايات قبل النوم، بيتٍ يشبه هذا البيت الذي يقف فيه الآن... غير أن دفأه تلاشى إلى الأبد، كما تلاشى الأمان من قلبه الصغير،لما رأى السماء تحترق.

في ذلك اليوم المشؤوم، اخترق الصمتَ صخبٌ آتٍ من الخارج؛ وقعُ أقدامٍ ثقيلة يطرق الأرض طرق الطبول، يهز جدران المنزل ويرجف قلب الطفل كطائرٍ مذعور في قفصه.

التفت نحو والده بخوف، لكن نظرة أبيه كانت جامدة، ويد أمه المرتجفة أمسكت بيده الصغيرة كمن يتمسك بالزمن قبل أن يفلت.

خرجوا جميعًا إلى الشارع، وهناك رأى ما لم تستوعبه طفولته بعد.

الناس مصطفّون على جانبي الطريق، وجوههم باهتة، أعينهم شاردة، كأنهم تماثيل من الخوف تصطف لتشهد على قدرٍ لا يُردّ.

صفوفٌ طويلة تمتد كالسلاسل، والهواء مشحون برائحة الخضوع.

من بعيد، بدأ الموكب الملكي يقترب ببطء، مهيباً كموكب الموت، يزحف بخطى واثقة، يبتسم ابتسامة باردة كأنها سخرية من الحياة نفسها.

الملك...

رجل في منتصف الأربعين، طويل القامة، عريض المنكبين، يجر خلفه ظلالًا من الكبرياء والدم.

كان يرتدي عباءة قرمزية مطرّزة بخيوط الذهب، تتوهج تحت شمس الظهيرة كجمرٍ فوق رماد الفقراء.

تاجه المرصع بالجواهر يلمع كعيون الشياطين، وسيفه الطويل المعلّق إلى جانبه ما زال يحمل آثار دماءٍ لم تجف بعد.

وجهه جامد، قاسٍ كصخرةٍ نُحِتَت من الغطرسة، لا يحمل ملامح إنسان بل صورةً خالدةً للسلطة حين تفسد الروح.

كان الملك ينحر رقابَ "الخونة" أمام الجميع، كمن يقصّ سنابلَ خبزٍ ليعلّم الشعب كيف يحنث الجوع. يُلفّ التهمةُ "إرهابًا وخيانة "حول أعناقِهم كحبلٍ منطقٍ، فتسقط الرؤوسُ واحدةً تلو الأخرى، والدم ينهمرُ على الأرضِ أنهارًا حمراء صغيرة تُبلّل الحجر وتُضيف صوتًا آخر لصلابة الصمت.

صوت الملك جانحٌ جهوريٌّ يهزُّ الجدران والأضلُّع:

-" هؤلاء الخونة يهددون سلام مملكتنا! سأقطع رؤوسهم كي تعلموا أن العدالة لا ترحم، وأن الخيانة مصيرها الموت البطيء!"

كان نحرُه حاسمًا، باردًا كما آلة لا تتوقف، والجلادونُ المطيعون يتلقّون الأوامر بلا تردّد، يرمون بالجثَ جانبًا كأوراقٍ مقطوفةٍ من شجرةٍ يابسة.

الناس من حول الساحة يقفون كتماثيلٍ من رمادٍ حيّ؛ أجسادهم موجودة، وعيونهم شاخصة نحو الدم، لكن نفوسهم مبتلاةٌ بخوفٍ أعمق: خوفٌ لا يزول إلا بأن يصبحوا صامتين حتى في أفكارهم. ذلك الرعب يتحوّل بمرور الوقت إلى جزءٍ من هويتهم النفسية، شبحٌ يرافق كل ولادةٍ وكل دفن. قلوبهم تئنّ من الألم المكبوت، ألم تراكم جيلاً بعد جيلٍ بفعل القمع المتواصل.

اليوم الذي خرج فيه الملك من قصره الذي يناطح السحاب هو اليوم الذي اختُتِمَت فيه كلّ براءةٍ في المدينة؛ خرجت الشمس لتكشف عن وجوهٍ لا تعرف أن تبتسم بعد الآن.

فجأة، صَوْتٌ صغيرٌ اخترق كل هذا الضجيج:

-"أمي، ماذا هناك؟"

صرخت الأمّ بوجهٍ شاحبٍ وكأنها تسحب الطفل إلى ملجأٍ صغيرٍ داخل الزمان:

-"أدخل إلى المنزل، فورًا، الآن!"

وقد كان أمرها أكثر من دعوة، كان درعًا ووعدًا بأن يحاول أحدٌ ما أن يحمِي آخرَ ما تبقى من دفءٍ في قلب ذلك الطفل.

وصل الموكب إلى منزل والدي فيساكا، وكان المشهد أشبه بكابوسٍ حي يطرق باب طفولته قبل أن يفهم معنى الخوف. الصخب، الصهيل، أقدام الجنود الثقيلة، كل شيء كان يختلط في رأسه الصغير، حتى أن الهواء بدا محمّلًا برائحة الحديد والدم. وقف الطفل عند طرف الباب، يختلس النظر إلى عالمٍ لا ينتمي إليه قلبه بعد، عالم يمزق البراءة كما يمزق الريح أوراق الخريف.

كان والده رجلاً طيبًا، رجلًا بسيطًا يعمل الأرض برفق، يزرع النباتات كما لو كانت أحلامه الصغيرة. كانت عيني فيساكا تلمع كلما نظر إليه، ترى في ملامحه دفءً وأمانًا، شيئًا لم يعد موجودًا في هذا اليوم الأسود.

فجأة، ارتفعت صوت الكلمات متحديًا، حادًا كصرير الحديد على الحديد:

-"سَيَنْدَثِر حكمك، سيزول سلطانك، أيها الطاغية!"

لكن لم يكد الطفل ينهي سماع صدى الصوت، حتى اخترق رمح قلب والده، يندفع بسرعة، يقطع الهواء كما يقطع البرق السماء. ومع ذلك، ظل الرجل ممسكًا بالرمح، كأن جسده تمسك بالروح نفسها التي لم تفارقه بعد. نظراته كانت قاتلة، متجهة نحو الملك مباشرة، تحمل غضباً ومقاومةً صامتة، نظرة قتلت كل المشاعر في المكان، وصدرت منها صرخة لا يسمعها إلا من عرف قوة العزيمة.

صرخة زوجته انطلقت فجأة، عالية، متقطعة، لكنها صمتت سريعًا عندما انهار جسدها فوق جسد زوجها. كان صوتها آخر ما اختلط في ذهن الطفل، لكنه لم يستطع تفسيره بعد، كان مجرد صدى غريب يطرق أذنه الصغيرة، يختلط بالخوف والذهول.

الغريب في المشهد هو صمت الطفل، صمتٌ يفوق كل صرخات العالم. كانت روحه، بطريقة ما، قد فارقت جسده الصغير، تاركة جسده مجرد هيكل يتحرك بلا شعور. كان يسمع كل شيء بلا وعي، يرى كل شيء بعين لا تتأثر، ينتظر فقط اللحظة التي تعود فيها أمه، تلك اليد الدافئة التي تعانقه بعد كوابيسه، ليعيد إليه شعور الأمان الذي تهدده الأحداث الوحشية من كل جانب.

الملك، واقفًا على بُعد خطوات، كان يشاهد المشهد بلا رحمة، عيناه كأنها حجر مشع بالغطرسة والسلطة المطلقة. أما الطفل، فقد بدأ يشعر بأن البراءة التي حملها منذ ولادته تتبدد، وأن العالم الذي عرفه لن يعود أبدًا...

-"اقتلوا الطفل أيضًا، لا تتركوا وريثًا للخيانة، فالدم الفاسد ينتقل عبر الأجيال كلعنة!"

كان صوت الملك كختمٍ نهائي، يحمل في طياته حكمًا بلا رجعة. صدى الكلام تردد في الساحة كأنه صفعة تُوجه لكل من يفكر بالمناشدة.

ثم حدث شيءٌ لم تتوقعه القسوةُ تمامًا: تقدم جنديٌ شاب، وجْهُه شاحبٌ لكن عيناه تعكسان شفقةً غريبة في هذا العالم الصلد. تلعثم بصوتٍ مرتجفٍ وهو يهادن الملك مستجدياً:

-"مم، مولاي، أرجوك... إنه مجرد طفل بريء... قد يكبر خادمًا مخلصًا يخدمك."

رمق الملك الشاب بنظرةٍ مطولةٍ باردة، كما يزن تاجًا من الذهب. لحظةُ صمتٍ طويلة اختنقت في صدور الحضور، ثم انحنت العدالةُ الوحشية على كفّها. تردّد الملك، كمن يزن سيفًا قبل الضربة، ثم استدعى قسوةً أخرى جعلت صوته ينفجر بغضبٍ أقسى:

-"خذه إلى الغابة، دَعْه يموت هناك ببطء، تحت رحمة الوحوش والعناصر. ومن لا يريد أن يحلّ هذا في هذه السلالة فليفعل مثل أبويه!"

كان القرار حكمًا مخادعًا، إذ لم تُقتل الرأسُ هنا، لكنّ الإدانةُ أُرسلت في صورة نفيٍ وإهمال، أشد قسوةً من الموت السريع لأجل الخيانة.

الجندي الشاب ارتدى قناعه من الطاعة، لكن يده التي أمسكت بذراع الطفل احتوت على ارتعاشٍ لا يخفيه الظل. نظر إلى الأمّ، وجدها مدمّاة العينين، تحاول ولو للحظة أن تمنح ابنها نظرةً وداعٍ تبدو فيها الحياة كسلسلةٍ من صورٍ سريعة تُمحى. التفت الأب الممدد، كان نظره الأخير يلتقي بنظرة الطفل، نظرة لا تحتاج إلى كلمات، نظرة تؤكد أن الحب لا يزال هناك رغم الدم.

لم ينبس الطفل بكلمة، كان العالم قد صمت في داخله. لكن حين خطا الجندي به نحو الباب، لمح الطفل أن والدته حاولت أن تضع يدها على جبينه، كأنها تمنحه دفقة دفء أخيرة. لم يستطع أحد أن ينام ذلك الليل، أو ربما لم يستطع أحد أن يتذكر النوم بعده.

ساروا خارج أسوار المدينة، وخرّت أصوات الموكب خلفهم كقلبٍ يختفي تدريجيًا. مع كل خطوة، كان الهواء يزداد برودةً، وكأن المدينة تتخلص منهم ببطء. الأشجار الكبرى في بداية الغابة كانت تقبلهم بظلالٍ طويلة، أوراقها تحجب ضوء النهار كمن يلفّ الحقيقة برداءٍ أسود.

الجندي، الذي بدا في بدايته مجرد تابع للأوامر، ألقى نظرةً أخيرةٍ على الطفل. كان يرى فيه طفلاً يلعب بين الشجيرات في ذاكرته، صورة بعيدةٍ عن هذه اللحظة. همس ببعض كلمات محظورةٍ في ساحات القسوة، لكن الأمر كان محصورًا في صدره ولم يصل إلى شفتيه بوضوح.

الطريق إلى الأعماق أصبح وعرًا، أصوات المدينة خفتت، وحلت محلها طقطقة الأغصان تحت أقدامهم، وصدى غرباء لا يرحمون. كلما دنا الظلام، كلما تكاثفت الظلال، حتى بدا أن الغابة تتنفس حول الطفل وكأنها وحشٌ يقيم له المحاكمة.
في قلبه الصغير، بدأت تتفتت الآمال كأوراقٍ جافةٍ. لكن شيءً آخر، ربما انعكاسٌ من حضن والدته بعيدًا، تلمّع في عينيه لوهلة: رغبةٌ بسيطة في أن يُذكر اسمه لا كخائن لا يعرف معنى الكلمة أصلا، بل كطفلٍ كان يحب.
حينما اختفت آخر لمحةٍ من بيوت المدينة خلف الأشجار، بدا الجندي وكأن ثقالة القرار قد غطّت كتفيه، خطاه تَثاقلت، ووجهه شحب أكثر، لكنه لم يردف. في مكان بعيد، علا نباحٌ غير منتظم، ربما ذُكرى كاسرة، أو حيوانٌ يدافع عن حدوده.

الليل بدأ يبلعهم ببطء، وحين أُغمِضت عليهم ظلال الأشجار صار الطفل وحيدًا بين قسوة البشر وقسوة الطبيعة، ومع كل خطوة بات مصيره أقرب من أن يتحول إلى قصة تُحكى لتحذير الأجيال، لا إلى ذكرى حبيبة.

تركه هناك، يبكي، أخيرًا، تحت المطر البارد الذي يخترق جسده كإبرٍ من الجليد، يغسل دموعه ويجمدها في الوقت ذاته. لم ينظر الجندي خلفه، لم يلتفت ولا مرة، وكأن العالم بأسره قد تناسى وجود هذا الطفل الصغير، تاركًا إياه يواجه الوحدة الأولى في حياته، وحدة ثقيلة كالحجر، وحدة تجعل قلبه يئن من شعور بأنه مهجور، بلا مأوى، بلا دفء، وكأن السماء نفسها قد خذلته.

وكانت أسئلة الطفل تدور في رأسه بلا جواب: هل يستطيع طفلٌ في مثل سنه أن يفهم أن عليه الآن أن يؤمن مأوًى لنفسه، أن يحمي نفسه من برودة الليل والمطر، أن يجد طعامه بنفسه؟ أوليس من الطبيعي أن يظل يبحث عن حضن أمه، عن صوتها يدعوه لتناول الطعام، عن دفء يملأ بطنه الصغير؟ يا لقسوة العالم!

حل الغروب، وبدأ الظلام ينسكب بين الأشجار، لكنه لم يجد سوى بعض الحيوانات الصغيرة التي تتجاهله، كأنها تعرف أنه لا يشكل خطرًا عليها، أو أنها مجرد شهود صامتين على معاناته. كان كرما صغيرًا أن لم يقابله وحشٌ ينهش جسده قبل أن يتعلم معنى الوحدة.

ثم ظهر ظل من بعيد، يقترب بخطوات بطيئة، مترددة. ارتجف الطفل قليلًا، لكن مع اقتراب الشكل، أدرك أن ما يراه ليس وحشًا. كان رجلًا عجوزًا، جسده منحنٍ كشجرةٍ قديمة صمدت لعواصف الزمن، ووجهه مليء بالتجاعيد، كل خط فيه يحكي سنواتٍ من العزلة والأسرار المكبوتة التي أكلت روحه ببطء. كانت عيناه تحملان شيئًا غريبًا: حذرًا، لكن مع ذلك نوعًا من اللطف الذي لم يعهده الطفل من قبل.

تساءل الطفل في سره: هل هو كاهن؟ أم سارق؟ أم مجرد حطاب يعمل ليلاً ونهارًا ليؤمن لقمة من يعول؟ لكن قبل أن يخطر بباله أي جواب، انحنى الرجل، رفعه برفق نادر، وعيناه تدعوانه للثقة، لا للكشف عن نواياه بعد.

حمله إلى كوخه المنعزل في قلب الغابة، حيث كانت الجدران مبنية من حجارة مغطاة بالطحالب الخضراء، والألواح مهترئة، والسقف من أغصان مترابطة تشكل حاجزًا ضعيفًا يحمي الداخل من المطر والريح. المكان كان بدائيًا، لكنه أكثر أمانًا من البرية التي تُحيط به.

أعطاه الرجل طعامًا بسيطًا، لم يكن طعام أمه، بالطبع، لكنه كان كافيًا لإسكات بطنه، لتهدئة صراخ الجوع الذي لا يعرف أي سبب سوى البقاء. فالبطن لا يعرف الدروس، ولا يقيم وزناً لظروف العالم القاسية، يصر فقط على مطالبته بالدوام، وبقوة لا ترحم.

جلس الطفل قرب النار الصغيرة، يحدق في وجه الرجل العجوز، يحاول فهمه، وكأن كل تجاعيد وجهه تخبره بقصصٍ مخفية. ولم يكن يعرف بعد أن هذا الرجل، الغامض والهادئ، قد يصبح أول مرشد له في عالم لم يسبق له أن عرفه، عالم من القسوة والغموض والنجاة، عالم سيعلمه معنى البقاء حين يفقد كل شيء.

لم يتحدث أحدهما إلى الآخر، لكن الليل كان موحشًا، والغربة أثقل مما يمكن للكلمات أن تحمله.

جلس الطفل في زاوية الكوخ، جسده الصغير يرتجف بين يدي نفسه، يبكي بصوت خافت يتردد بين الجدران الحجرية المبتلة بالرطوبة. بكى لأنه شعر بأن الكابوس طال، لأن أمه تأخرت عليه كثيرًا، ولم تعد هناك يد لتحتضنه، أو حضن ليلملم جراحه الصغيرة.

كان عويل الذئاب البعيد كل ما يسمعه، يعلو ويخفت كما لو كان يراقب خطواته، وصرير الصراصير يتسلل من بين الشقوق في الجدران، يعزف لحنًا غريبًا من الوحدة والانتظار. ومع

كل هذا الرعب، بكى الطفل أكثر، حتى أرخى التعب كفيه على وجهه، ونام أخيرًا، ربما لعل الكابوس ينتهي، أو على الأقل يهدأ قليلاً في أحضان النوم.

أيقظه العجوز باكرًا، بصوت خافت، بلا كلماتٍ تعانق الروح، بلا لمسة حنان. لم يكن أبًا عطوفًا، ولم يمنح الحنان الذي يحتاجه الطفل ليشفى من جراحه، بل كان معلّمًا صامتًا، وكأنه يحمل ألوف الأسرار التي لا يُسمح له بالكشف عنها.

أخذ الطفل معه كل يوم إلى الغابة للصيد، يعلمُه كيف يقترب من الطرائد بصبر، وكيف يختار ما يؤكل وما يرفضه جسده. كان يعلّمه أن يستمع للأصوات، يقرأ الرياح، يتلمس آثار الحيوانات على الأرض، ويتحسس الأشجار كأنها نصوص مكتوبة بلغة قديمة.

كانت هذه الدروس بالنسبة للطفل أكثر من مجرد تعلم للصيد، بل كانت تلامس أعماقه التي لم يعرف عنها شيئًا، كانت تمنحه إحساسًا بالقوة الصغيرة التي تكبر بداخله شيئًا فشيئًا، كزرعٍ ينبت تحت الظل.

مع مرور الوقت، بدأ العجوز، رغم بروده الظاهر، يعلمه نطق الحروف، ويقرّب منه الكلمات، كمن يفتح نافذة على عالم أكبر مما يعرفه الطفل. كانت النجوم في السماء كل ليلة تنير عينيه ببريقٍ جديد، يلحظه الطفل كما لو كانت عيونًا صغيرة تطل عليه من السماء، والقمر كان بالنسبة

له كيانًا أسطوريًا يدهشه في كل مرة: هل يكبر؟ هل يصغر؟ هل تتساقط الصخور منه؟ وأين تذهب؟ وكيف يتم ملؤه من جديد؟

في تلك اللحظات، كان الطفل يشعر أن كل يوم هو رحلة جديدة، وأن الغابة ليست مجرد مكان للبقاء، بل كتاب حي، يعلّمه الصبر والملاحظة والخوف والحكمة في الوقت ذاته. ورغم أن قلبه ما زال يحنّ إلى حضن أمه، إلا أن صمت العجوز صار جزءًا من لغته الخاصة، جزءًا من تعليمه على البقاء، على أن يقاوم القسوة، وعلى أن يعرف أن الحياة أحيانًا تُعلّمنا بطرقٍ غريبة، وأحيانًا بلا كلمات.

يومًا بعد يوم، تعلم الطفل الكتابة والحساب، لكنه لم يتعلم فقط الأرقام والحروف، بل تعلم قبل ذلك شيئًا أثقل وزنًا: معرفة الأسئلة التي يجب أن تُطرح، وتلك التي يجب أن تُترك بلا جواب، مثل أسرار تختبئ بين الظلال. كان يعلم أن بعض الكلمات، إذا نطقها، قد تجلب الألم، وأن الصمت أحيانًا أثمن من أي نطق.

ورغم كل هذا القسوة التي طغت على طفولته، كان للحياة وجه آخر، ربما خفي، يلمحه في لحظات صافية بين أوراق الأشجار وبين لمعان النجوم. كان يتخيل، ولو بخيال طفل، أن الحياة يمكن أن تكون مشرقة، وأنه عندما يكبر سيقرأ عن أفلاك السماء، عن الكواكب والنجوم، عن أسرار لم تفارق الخيال البشري.

هكذا كانت أيامه تمر بين تعلم الصيد، والتحديق في السماء والأشجار، وبين نسج الحروف على الورق كما كان ينسج خيوط ثيابه الصغيرة؛ حروفه كانت محاولات لإضفاء شكل على الفراغ، لصنع عالمٍ يمكن أن يحميه من الوحشة، من الوحدة، من صدى الموت الذي رافقه منذ البداية. وبعد أشهر قليلة، تعلم الطفل القراءة، وكان ذلك إنجازًا عظيماً بالنسبة إليه، إنجازًا أعاد له بعض البريق الذي بدأ يخف تدريجيًا بعد مأساة فقده. ومع ذلك، كلما نظر إلى العجوز، رأى برودًا كما لو أن الحياة قد صقلته حتى أصبح حجرًا، ولم تعد المشاعر تعكس في عينيه سوى درس الصمت والمراقبة، دون أي لمسة حنان.

مرت سنتان على هذا الحال، سنتان من الصمت والمراقبة، كحال أي طفل رأى مقتل والديه، يبكي كل يوم، ينتظر أن يستيقظ من كابوسه الطويل، من حياة لم يعرف فيها الأمان إلا في رماد ذكرياته الصغيرة.

ثم جاء قرار العجوز الغريب، الذي لم يكن يتوقعه الطفل: تركه في الكوخ بمفرده لأيام متتالية. أربعة أيام بلا رجلٍ يرعاه، بلا كلماتٍ تصفه، بلا دليل على أن العالم الخارجي لن يبتلعه. وكان يأتيه في اليوم الخامس فقط، يلقي نظرة سريعة، ثم يختفي مرة أخرى، تاركًا الطفل مع نفسه، مع صمت الغابة، مع أصوات الرياح والأشجار، مع وحوش الليل التي تهمس بخوفٍ كامن.

الطفل في البداية شعر برعب لا يوصف، لكن شيئًا غريبًا بدأ يحدث: مع كل يوم يقضيه وحيدًا، بدأ يدرك قدراته على البقاء، بدأ يلاحظ تفاصيل المكان، صدى خطواته على الأرض، انعكاسات الضوء على الجدران، حتى أصوات الطيور والحيوانات الصغيرة. تعلم أن يصمت، وأن يراقب، وأن يتصرف بحذر، وأن يجد متعةً صغيرة في مجرد اكتشاف خيط جديد من الحياة في هذا العالم الوحشي.

كانت الغربة بالنسبة له مدرسة، والوحشة معلمًا، والصمت كتابًا يقرأه بعيون مفتوحة. وكان يعلم أن كل لحظة وحيد فيها تكسبه شيئًا لم يعرفه في طفولته: الثقة بنفسه، الصبر، القدرة على مواجهة الخوف... وربما، في عمق قلبه الصغير، بدأ يتشكل شيء من القوة التي سترافقه طوال حياته.

كان العجوز يتركه مع كتب غريبة، صفحاتها مليئة برموز وألغاز قديمة، وكأنها أرواح الماضي التي تنتظر من يفك شيفرتها. جلس الطفل لساعات طويلة أمامها، يحدق في الحروف والرموز، يحاول أن يفهم، يحاول أن يربط بين الرموز والكلمات، وكل معرفة كانت تأتي بعد جهد شاق، بعد صبر يمتد إلى ما لا نهاية. كان يكتب كل ما لم يفهمه على حافة الورق، يدوّن أسئلته وكأنها مفاتيح لمستقبل مجهول، منتظرًا عودة العجوز ليجيب عنه، ليكشف له بعضًا من أسرار العالم.

كان العجوز يترك له الطعام الكافي، رماحًا وسهامًا ليحمي نفسه، وخنجراً جميلاً تعلق به بشدة، كأنه قطعة من شجاعته الصغيرة، رمزًا للقدرة على المواجهة في عالم لا يرحم الضعفاء. ومع كل يوم يقضيه وحده في الكوخ، كان يشعر بالمسؤولية تتسع داخله، وبحاجة متزايدة لتعلم الصبر والحذر.

وذات يوم، حدث ما لم يتوقعه الطفل؛ لأول مرة، نال إعجاب العجوز. فقد نصب فخاخًا معقدة ووضع فيها مجموعة من الوحوش البرية التي كانت تهاجم محيط الكوخ، بطريقة لم يكن العجوز ليعلمها إلا عبر مراقبة الطفل منذ شهور. كان الطفل قد صنع فخاخًا من لا شيء، ابتكر حيلًا جديدة، دمج خبراته المكتسبة من الصيد، وذكائه المتزايد ليحول الخطر إلى فوز، وها هو شعور الفخر ينمو في داخله كبذرة صغيرة زرعها النجاح في أرض كانت قاحلة حتى الآن.

ولكن، بالرغم من هذه اللحظات النادرة من النصر، لم تكن الصدمات بعيدة عن حياته. كل يوم كان يحمل معه صدمة جديدة، تجربة صعبة، خيبة أمل، أو خوفًا جديدًا. كانت هذه الصدمات تأكل ثقته بنفسه شيئًا فشيئًا، كحشرات صغيرة تنخر جذور الشجرة، حتى أصبح الفخر الذي شعر به هشة، كسلك ضئيل يوشك أن ينقطع مع كل موجة جديدة من الألم أو الفقدان.

كانت حياته خليطًا من النجاح المؤقت والخطر المستمر، من العلم المكتسب والقسوة التي لا تعرف الرحمة. كل إنجاز كان محفوفًا بخطر، وكل فرح كان متبوعًا بصمت طويل، يملأ المكان

ببرودة تجعله يدرك أن الحياة ليست إلا سلسلة من التحديات، وأن عليه أن يظل يقظًا، صبورًا، مستعدًا لكل ما قد يأتي، مهما كان قاسيًا أو غير متوقع.

ومع ذلك، كان الطفل يشعر شيئًا داخليًا، شعورًا صغيرًا لكنه ثابت، بأن العالم قد يمنحه لحظات قصيرة من النصر، وأنه قادر على أن يكون أكثر من مجرد ضحية للغابة، أكثر من مجرد طفل تركته الأقدار وحيدًا.

كانت الحياة جميلة نوعًا ما، رغم كل ما حملته من صعوبات وقسوة. كان الطفل يجد متعة خفية في مناظر الأشجار المتموجة، الجداول المتدفقة، والأزهار التي تتفتح كأنها تستقبل الشمس بابتسامة لا تعرف الحزن. وفي العاشرة من عمره، كان يشعر بأن الطبيعة تقدم له نوعًا من الأمان، شيئًا لم يستطع أن يمنحه له البشر بعد فقده لوالديه.

وذات يوم، بينما كان يتجول بين الأشجار والزهور البرية، حدث ما ندر جدًا في حياته؛ فقد قابل أفرادًا يزورون المكان، غرباء لا يعرفهم. كانت معاملته معهم غريبة بعض الشيء، حذرة ومتحفظة، لأنه لم يعرف من قبل كيف يتعامل مع الناس إلا بما ورثه من العجوز: كثير من السمات، قليل من الكلمات، وقليل من الإيماءات التي تعكس شعورًا داخليًا لا يعرف التعبير عنه.

مع ذلك، لم يكن الطفل يؤذي أي شخص، لا بنظراته، ولا بجوارحه، ولا بتصرفاته. كان قلبه لا يزال صافيًا رغم سنوات العزلة الطويلة، رغم الحزن الذي عاشه. وشيئًا فشيئًا، بدأ يلاحظ أصول اللباقة في تصرفات الآخرين: كيف يبتسمون، كيف يلوحون باليدين، كيف يخففون من قوة كلماتهم عندما يخاطبون من هم أصغر سنًا أو أضعف.

بدأ يدرك أن العالم ليس مجرد بقاء أو صراع، بل هناك قواعد خفية للتعامل، طرق للتفاهم بدون عنف، طرق للتواصل حتى مع من لا يعرفهم، وأن الكلمات أحيانًا تكون أكثر قوة من السيف والخنجر معًا.

كان يراقب الناس في صمت، يحاول أن يقلد حركاتهم في رأسه قبل أن يجرؤ على القيام بها، وأن يفهم ما وراء كل تصرف، كل نظرة، كل كلمة. ومع كل لقاء صغير كهذا، شعر أنه يكتسب شيئًا لم يمنحه له العجوز مباشرة، شيء عن الحياة التي لم يرها إلا من خلال الطبيعة والكتب والفخاخ، شيء عن البشر الذين يمكن أن يكونوا طيبين أحيانًا، وربما، مع الوقت، يمكن أن يكون جزءًا من عالمهم.

وفي أعماق قلبه، بدأ شعور خافت ينمو: شعور بأنه ليس مجرد طفل وحيد في الغابة، بل كائن قادر على الفهم والملاحظة، قادر على أن يصبح جزءًا من هذا العالم المعقد، مع كل براءة طفولية بقيت فيه رغم كل ما رأى وعاش.

لكن في ليلة احترق فيها الرماد ..

صوتٌ في الخارج، يمزق الصمت كسكين في الظلام، يبدو وكأنه شخص ما يحادث العجوز، كان الفضول قاتلا في هذه اللحظة، أسرع لينظر من هناك، عبرة فتحة صغيرة صنعها بنفسه كان يراقب الخارج عبرها أحيانا، يقف رجل بملابس نبيل فاخرة، مزخرفة بالذهب والحرير، يحرك يديه بغير انتظام.

-"كم تدفع مقابل هذا الطفل، أقولها لآخر مرة ؟"

-" إنه طفل قوي البنية، سيكون عبدا جيدا في قصرك، أو بضاعة ثمينة في سوق الرقيق، لذا فإن سعره أكبر مما عرضت"

لم يجد ما يستوعب به الأمر، هل مجرد كلمات بسيطة كفيلة لتحطيم روح محطمة أصلا...

دمعت عيناه بغزارة، غضبٌ مزق قلبه، وهو الذي اعتبره أباً، خيانة العالم ستكون لا شيء، أمام أثر هذه الكلمات التي قتلت ما كان حيا مدفونا...

- "أنا لست شيئاً يُباع! أيها الخائن"

لم يلبث طويلا قبل أن يهرب عبر الغابة المظلمة، بعدما أسقط ذلك الجزء الصغير المتبقي من الشمعة ، واندلع حريق في الكوخ من خلفه، ليترك العجوز صارخا من ورائه في تردد، يحدث النبيل بالبقاء ويتوسل إليه بعد انصرافه، و بين ملاحقته للطفل آمرا بالعودة، الطفل الذي لم يأخذ معه سوى خنجره الذي يربطه بخصره طول الوقت، وحسراته.

"خائن، خائن، لم اختار هذه الكلمة بالذات، هل اللوم يقع على العجوز الذي يقوم بتربية أطفال يتامى، في آن واحد، ويبقيهم في أكواخ في غابات ليقتلهم الشعور بالخوف قبل الجوع، كان الطفل واحد من خمسة أطفال يعاملهم كسلعة للبيع، تلك كانت اللحظة التي عرف فيها الطفل لَماذا كان يتركه أربعة أيام، أم أن اللوم يقع عليه، إن تعلق بما تبقى من قلبه، بوحش، وهل يلام طفل لا يدرك يمينه من يساره!

أم أن اللوم يقع على العالم بأسره"

كان يجري بدون نعل ينتعله، لم تشكل آلام الأشواك من تحته مصدر انتباه حتى إذا ابتعد عن العجوز، خلف شجرة، بدأ التورم في قدميه يؤلمه، ثم أزال تلك الأشواك التي اخترقتها، وضغط كي لا تنزف، وكان ذلك آخر ما يتذكره الطفل فيساكا قبل غفوته.

الفصل الثاني: ثقة بريئة

في سوق المدينة المزدحم بالأصوات المتنوعة والحركة الدائمة، حيث يمتزج صراخ الباعة مع ضجيج العربات والخطوات السريعة للمارة.

وقف فيساكا خلف طاولته الخشبية البالية، التي كانت مغطاة بقماش رمادي باهت، محاطاً بلوحاته المتناثرة على الأرض والرفوف المؤقتة المصنوعة من ألواح خشبية قديمة.

-" السماء جميلة اليوم أليس كذلك يا إيلاس؟ "

-" ومتى كانت غير ذلك في نظرك يا فيساكا"

-" ليتنا كنا نعيش عليها بدل الأرض " بابتسامة بريئة

-" هل يمكنك أن تحتفظ بتخيلاتك أيها الرسام؟ "

-" آه، أنتمْ لا تعرفون للفن معنى أيها التجار! "

-" أنتَ محق، لذلك يأتيك في اليوم زبون واحد أو اثنان! "

-" سيأتي يوم وسيكون لدي زبائن كثر، وستحسدني على ذلك " بملامح ساخرة

-" قلت لك لا أريد سماع المزيد من تخيلاتك أيها الفتى"

-"حسنا حسنا، ياللهول! "

ضحكة خفيفة تظهر على وجهه بين كلمة وأخرى، وتلك حاله الدائمة في السوق، وها قد انتهى يومه فيه، جمع أدواته برفق، تارة يسقط فرشاة، وتارة عبوة للألوان، وسط تذمر التجار فينتهي به الحال... إلى تنظيف المكان..

وضع اللوحات المتبقية في حقيبة قماشية كبيرة، ثم بدأ يتجول في أزقة المدينة الضيقة، يمر بجانب المحلات المفتوحة التي تبيع التوابل والأقمشة، والأطفال الذين يلعبون في الشوارع الترابية بكرات مصنوعة من خرق قديمة...

وصل فيساكا إلى جانب الطريق الرئيسي، ثم جلس تحت شجرة جديدة لم يجربها من قبل، محاطاً بظلها الواسع الذي يحميه من أشعة الشمس الحارقة، ثم أخرج أدواته من حقيبته، يرسم لوحة صغيرة تصور منظراً من المدينة كما يراه من موقعه، مع تفاصيل للمباني والأشخاص..

-"يا لهذه التفاصيل الدقيقة! "

ثم كتب بعض الملاحظات السريعة في دفتر صغير يحتفظ به لأفكاره اليومية. بعد ذلك، قام وقفل حقيبته بعناية، ثم عاد إلى منزله في الحي الفقير، حيث المنازل المبنية من الطين والخشب..

رمى التحية على جيرانه الذين كانوا يجلسون أمام أبوابهم يتبادلون الأحاديث عن أخبار المدينة، قبل أن يدخل الكوخ ويغلق الباب خلفه بإحكام...

لم تكن هنالك لحظات نزع فيها قناعه ذلك وأعاده إلى مكان قرب الباب ليرتديه مجددا قبل خروجه، لكن الذي دخل الآن إلى هذا المنزل، لم، ولن يكون، أبدا، نفس الشخص الذي كان في السوق، أبدا !

داخل ذلك البيت المتواضع، الذي يتكون من غرفة رئيسية وأخرى ثانوية مع بعض الأثاث البسيط مثل طاولة وكرسيين، ومطبخ صغير في الزاوية، هنالك لوحة كبيرة للنجوم نصف مكتملة معلقة على الجدار الرئيسي، تحتل مساحة واسعة وتظهر تفاصيل دقيقة للكواكب والنجوم كما يتخيلها فيساكا...

ابتسم، لم تلك ابتسامة شخص مرحٍ مثله، ولم تكن ابتسامة إنسان أصلا...

-" كل ما أريده، أصل إليه! "

يحدث نفسه بتعالٍ عميق جدا، ثم جلس أمام تلك اللوحة على كرسي خشبي قديم يصدر صريراً خفيفاً عند الحركة...

يمسك فرشاته وألوانه المرتبة في علب صغيرة على الطاولة.

فجأة، ساد ظلام على عينيه، وأخفض رأسه قليلا، و بقي ساكناً للحظة طويلة، ثم أكمل يرسم، وبعد لحظات، قام فيساكا من مكانه ببطء، دار حول الغرفة يفحص الجدران المتشققة والأركان المظلمة، يلمسها بيده ليتأكد، ثم عاد إلى كرسيه بعد دقائق من التجول..

استمر في العمل بيد ثابتة. تدريجياً، بدأ يصرخ بسعادة مكبوتة:

- "رائع، رائع، رائع!"

مع كل خط يضيفه، ثم تمتم بهمس منخفض وسريع:

-"هذه هنا، وهذا النجم سيطل على ذلك المكان..."

استمر يرسم ويرسم ويرسم، يضيف خطوطاً دقيقة وألواناً متناسقة مثل الأزرق الداكن للسماء والأبيض اللامع للنجوم، حتى انفجر ضاحكاً بصوت عالٍ يملأ الغرفة.

عندما قام من مكانه، ليتأكد من شيء ما، لم يكن الأمر مجرد تصرف عابث، لكن ما في الأمر هو أنه أدرك أن شيئا ما، لعله يكون ظلا، أو شيطانا، يتجسس عليه من خلال الشمعة التي تضيء بقربه، يترقب كأنه ينتظر اللحظة المناسبة للهجوم،

الظل بدا كأنه اختبأ في الشمعة المضيئة على الطاولة، يتجنب أن يُكتشف تماماً، حيث يتغير شكله مع اهتزاز اللهب.

- "أيها الظل، ربما لم يتعرف عليك أحد من قبل، لكنك لم تدرك أنني أعرف إضاءة الشمعة جيداً، كم من الضوء يصدر منها، وإليها، ولا عجب أنها بهتت قليلاً، لدرجة لا يلاحظها أحد سواي."

ضحك ساخراً، يهز رأسه ويضرب الطاولة بخفة...

لكن سبب ضحكته الساخرة هو أن كل هذا، كان مجرد أحداث صنعها في عقله فقط، بالطبع ليس هنالك وجود لأي ظل حقيقي، ولا شيء خارج عن المألوف في منزله يحدث، مجرد خيال يبنيه من الوحدة والذكريات... ومن تفكيره، الذي يحذر منه دائما !

-"آه، يا لي من مجنون! "

لم تكن تلك الحوارات المصطنعة حقيقته الفعلية، لكنه لم يكن يريد أن يعرف أي أحد بهذا الأمر، ولو لزم الأمر لجعل نفسه يبدو كالذي لا يعرف ما يقول، سيفعل!

ضحكة ساخرة أخرى، قُبيلَ قيامه، ووقوفه أمام النافذة الصغيرة المغطاة بستارة رقيقة، أطل منها نحو الخارج تحت ضوء الغروب، نظر بغضب إلى القصر الملكي البعيد الذي يرتفع فوق التلال

بأبراجه العالية والجدران الحجرية المنيعة، ثم ضحك مرة أخرى، ضحكة قصيرة مليئة بالسخرية قبل أن يعود إلى لوحته ويضيف لمسات أخيرة لتلك الليلة...

في اليوم التالي، استيقظ فيساكا مبكراً كعادته مع أول أشعة الشمس، حمل لوحاته وأدواته في الحقيبة نفسها، ثم ذهب إلى السوق عبر الطرق المزدحمة...

هناك، بدأ يبيع بعض اللوحات الجاهزة أو يرسم رسوماً خاصة لزبائن يطلبون صوراً شخصية أو مناظر محددة مثل حديقة أو وجه عزيز...

كان يحادث زبوناً عن لوحة تصور المدينة من أعلى، يشرح له التفاصيل والألوان المستخدمة مثل الأحمر الدافئ للسطوح والأخضر للأشجار، عندما لفت انتباهه طفل صغير جاء إلى تاجر تفاح مجاور، يرتدي ملابس رثة ويحمل عملة واحدة فقط في يده الصغيرة، قال الطفل بوجه بريء مليء بالأمل:

- "تفضل سيدي، هذا كل ما عندي."

ابتسم التاجر له قبل أن يهُمّ بفتح كيس التفاح الكبير ليعطيه حبة واحدة، لكن العملة سقطت من يد الطفل وتدحرجت على الأرض الترابية بين الأقدام، انخفض التاجر ليلتقطها، يبحث عنها

بين التجارة الصغيرة، لكن الصدمة كانت في استغلال الطفل اللحظة، وسرق حبتين إضافيتين بسرعة البرق، وضعهما في الكيس ليصبح فيه ثلاث من حبات التفاح.

ثم أخرج عملة أخرى من جيبه الخفي وقال ببراءة:

-"لقد وجدتها، لقد وجدتها، هنا على الأرض!."

مخبئا الكيس خلف ظهره بسرعة قبل أن يقوم التاجر ليلتقطها، وينشغل بزبائن أهم...

هكذا خسر التاجر عملتين وربح الطفل تفاحة زائدة دون أن يلاحظ أحد الخدعة، مع ابتسامة خفيفة على وجه الطفل.

ابتسم فيساكا بهدوء من مكانه، لكنه بقي ينظر إليه، حتى أن الزبون الذي كان يحدثه غادر، ولم يدرك فيساكا الأمر أصلا! كانت في نظراته دلالات كثيرة على تأثير رؤية الطفل عليه

-"طفل ذكي، يشبه شخصا من الماضي، قد مات منذ سنوات"

أعجب الرسام الشاب كثيرا بذكاء الطفل السريع ، وهو يحدق به متابعا في الحيلة التالية، حيث أوقع بائعاً آخر في فخ مشابه، يتظاهر بالفرار بعد سرقة صغيرة مثل حلوى أو فاكهة، لكنه يعود بطريقة تجعل البائع يشعر بالذنب ويعطيه المزيد مجاناً.

-" هاي، تارون، كيف الحال يا رجل! "

-" بخير يا فيساكا، هل لديك أي أخبار جديدة لي؟ "

-" ماذا مثلا، هل تريد لوحة فنية لصندوق التفاح هذا؟" وتعلو على وجهه ضحكة خفيفة.

-" هذا ليس سؤال حتى... حسنا قل لي، هل أسدي لك خدمة؟"

-" أريد ثلاث حبات تفاح من فضلك"

-"على الرحب والسعة، تفضل، ثلاثُ عملات"

-"أوو، نعم، هاهي، خذ الباقي يا صديقي! "

-" لكن هذه خمس عملات! "

-"يبدو أن أحدهم في طريقه إلى الثراء أليس كذلك! "

-"شكرا لك فيساكا! "

في مفترق جدران ضيق بين المحلات، مليء بروائح الخبز الطازج والتوابل، التقى الطفل بفيساكا مباشرة، الذي كان يراقبه من بعيد. قال فيساكا له بهمس منخفض:

- "أتبحث عن هذه؟"

وأخرج العملة التي أسقطها الطفل عمدا بعد أن التقطها سابقاً. انزعج الطفل فجأة وخاف، قال بصوت مرتجف ووجه شاحب:

-"ستسلمني للأمن، أرجوك لا."

هز فيساكا رأسه بهدوء، أعاد العملة إليه بطريقة ذكية، يدسها في يد الطفل دون أن يلاحظ أحد من المارة أو الباعة المجاورين، ثم قال:

-"ما رأيك أن أكلفك ببعض المهام البسيطة، وسأدفع لك جيداً؟ سأعلمك حيل أفضل، وستكسب المزيد دون مخاطر كبيرة."

تردد الطفل للحظة، ينظر حوله خوفاً من الحراس، ثم وافق بعد أن رأى الصدق في عيني فيساكا والوعد بالمال.

-" لكن دون إلحاق الأذى بالناس! "

-" وكيف تريد فعل ذلك"

-" حسنا، هل ترى ذلك الشخص الواقف هناك، إنه تاجر قماش كان يضايق الكثير من النساء بتصرفاته، دعنا نشاهد معا مالذي سيحدث له "

في تلك اللحظة، كان فيساكا قد أعد خطته بعناية أكبر مما يبدو، فقد رسم قبل قليل لوحة ساخرة له، تصوره كشخصية بجسم منتفخ ووجه غاضب قبيح، يبيع في محله المرسوم بدقة كبيرة، يطارد النساء بكلمات فارغة مكتوبة في فقاعات حوار، وخلفه نساء يضحكن منه.

وضع اللوحة في مكان مرئي قرب محله، معلقة على عمود خشبي مجاور، كأنها لوحة إعلانية صغيرة، لكن تصميمها لتجذب الانتباه تدريجياً مع انتشار الفوضى كان مدروسا بعناية، كما أن

الطريق بين محله وبين مكان العمود لم يكن صدفة! فقد علم استعماله الدائم له، لكن التوقيت الذي أعد فيه فيساكا فخاخه جعلها تختار فريستها كما يختارها هو.

مع انتشار الهمس وانزعاج الناس منه، بدأ بعض المارة يلاحظون اللوحة. صاح أحدهم ضاحكاً:

-"انظروا! هذه اللوحة تصور هذا التاجر تماماً! يا له من سخيف!"

انتشر الضحك كالنار في الهشيم، وتجمع الناس حولها، يشيرون ويهزأون:

- "نعم، إنه هو بلا شك"

كانت السخرية عامة، وأصبحت اللوحة محور الاهتمام، مما زاد من إحراج تاجر القماش ذاك الذي كان يحاول الدفاع عن نفسه أمام الحراس الذين اقتربوا للتحقيق. احمر وجه غضباً، وفقد أعصابه تماماً، ثم صاح:

-"من وضع هذه اللوحة اللعينة؟ سأمزقها!"

غادر محله مسرعاً نحو العمود، يدفع الناس بعيداً بغضب أعمى، يمد يده ليمزق اللوحة عن العمود. لكن فيساكا كان قد نسج خيطاً شفافاً رفيعاً، حيث أن الطريق الذي يؤدي للعمود من المحل مباشرة ضيق، وعلى طرفين رصيف صغير، كان مكانا مثاليا لوضع خيوط الصيد الشفافة و الدقيقة التي يستخدمها الصيادون مربوطاً بين العمود والأرض، في مكان يمر به حتماً..

تعثر التاجر في الخيط غير المرئي، و فقد توازنه فجأة، وهوى إلى الأمام بقوة، يسقط مباشرة في بقعة من المادة اللاصقة التي كان فيساكا قد سكبها مسبقاً على الأرض هناك مزيج من الغراء الطبيعي المصنوع من الراتنج والعسل المكثف، يبدو كبقعة ماء عادية تحت أشعة الشمس، لكنه يلتصق بشدة عند اللمس.

سقط تاج على وجهه، ملتصقاً بالأرض، يحاول النهوض لكن ملابسه الفاخرة التصقت بالتراب واللاصق، وأصبح يتخبط كالسمكة خارج الماء. انفجر الضحك من الجميع: النساء يهزأن منه بصوت عالٍ، والرجال يصفقون، والأطفال يقلدونه. صاح تاج مذعوراً:

-"مساعدة! هذا فخ! من فعل هذا؟"

لكن الحراس، الذين كانوا يتحققون من الشكاوى، رأوا المشهد كله كإحراج ذاتي، وقال أحدهم ساخراً:

-"يبدو أنك سقطت في فخ نفسك، ربما حان الوقت لتتوقف عن مضايقة الناس."

أمسكوا به ليساعدوه على النهوض، لكن اللاصق جعل الأمر أكثر إحراجاً، حيث التصقت يد أحد الحراس به أيضاً، مما زاد من الفوضى والضحك العام.

من بعيد، راقب فيساكا المشهد مع الطفل، يبتسم :

-"رأيت؟ الحيلة ليست في القوة، بل في التوقيت والتفاصيل. الآن، لن يكرر أخطاءه قريباً، وسيصبح قصة سخرية في السوق لأسابيع."

فرح الطفل، ثم ضحك بهمس:

-"كيف فعلت ذلك كله؟ ألم يرك أحد في هذا السوق المزدحم؟ "

-" ربما كثرة الازدحام تجعل الأمر عكسيا أليس كذلك؟ من يهتم؟ لا تقلق، إنه ليس بالأمر الصعب علي، حسنا، لم تذكر لي اسمك حتى الآن ؟"

-"اسمي أدريان"

-"وأنا فيساكا، ليس لديك منزل تقيم فيه أليس كذلك؟ "

-"لا، مع الأسف، لم يكن لدي مأوى منذ وفاة أمي "

-"أنا آسف لسماع هذا..

حسنا، ما رأيك أن أصطحبك للبيت؟ "

-" سيدي أنا لا أعرف... ما الذي علي فعله حقا... "

ابتسم فيساكا بخفة، ونظر إلى الصبي بعينين هادئتين:

-"لا، لستُ مخيفا إلى تلك الدرجة؟ صحيح؟ أكبرك بحوالي عشر سنوات فقط!

ليس عليك شيء تفعله ، فقط تناول بعض الطعام واسترح، ثم قرّر بنفسك إن كنت تريد البقاء."

تردّد أدريان للحظة، ثم قال بخفوت:

-"لن أكون عبئًا، أعدك... أستطيع أن أعمل، أن أنظف أو أساعدك بشيء."

ضحك فيساكا بصوت منخفض:

-"ها أنت تبدأ المساومة قبل أن تصل حتى إلى الباب."

ثم انحنى قليلًا ليكون في مستوى نظره وأضاف:

-"أتعرف؟ أحيانًا، من لا يملك بيتًا هو أكثر من يعرف قيمته. تعال، أدريان، ستجد مكانًا عندي، على الأقل الليلة."

رفع الصبي نظره نحوه، وكأن شيئًا من الأمان الذي فقده منذ زمن عاد يسري في عينيه.

-"حقًا... ستأخذني معك؟"

-"قلت لك، بيت الفنان يتسع دائمًا لقلب آخر."

ابتسم أدريان بخجل، وبدأ يسير بجانبه وسط ضجيج السوق، بينما خيوط الغروب تمتد على وجهيهما. لم يكن يعلم أن تلك الخطوة الصغيرة نحو ذلك البيت ستكون بداية عبورهما معًا إلى عالمٍ آخر... عالمٍ من الظلال والأسرار.

كانت الطرقات المؤدية إلى بيت فيساكا تزداد هدوءًا كلما ابتعدا عن السوق، المدينة بدت من هناك كجسدٍ نائم، تتناثر عليه أضواء المصابيح الخافتة مثل أنفاسٍ متقطعة.

كان أدريان يسير خلفه بخطوات صغيرة، يحاول ألا يصدر صوتًا، كأن الأرض نفسها قد تغدو سرًا يجب احترامه.

توقّفا أمام بيت خشبيٍّ متواضع عند أطراف التلّ. كان الباب مائلًا قليلًا، تعلوه آثار طلاءٍ باهت بلونٍ رماديّ، والنافذة الوحيدة تتدلّى منها قطعة قماشٍ ممزقة تتحرك مع النسيم. لكن عندما فتح فيساكا الباب، انكشفت لوحة مختلفة تمامًا عما توقعه الطفل.

من الداخل، لم يكن المكان عاديًا؛ الجدران مغطاة بلوحاتٍ متراصّة، بعضها مكتمل، وبعضها نصف مرسوم كأن الفنان تراجع في منتصف الفكرة. ألوانٌ داكنة تتداخل مع أخرى حارة، خطوط من الفوضى تلتقي في مراكز ضوءٍ دقيقة، كأن كل لوحة تخفي خلفها سرًّا أو جرحًا. وفي الزاوية، طاولة طويلة تعلوها فُرش كثيرة مغموسة في أوعيةٍ صغيرة من الصباغ.

وقف أدريان مبهورًا:

-"هذا... هذا مكانك؟"

ابتسم فيساكا بهدوء وهو يعلّق معطفه:

-"بل عالمي الصغير. كل لوحة هنا هي جزء من حكاية لم تنتهِ بعد."

اقترب الصبي من إحدى اللوحات، كانت تظهر فيها يدٌ تمتد من الظلال نحو نورٍ باهتٍ في الأعلى، فسأل بخفوت: -"وهذه؟ ما قصتها؟"

-"قصتها؟"

قال فيساكا وهو ينظر إليها بعينٍ نصف غارقة في الذكريات، -"ربما عن شخصٍ يحاول الوصول إلى شيءٍ لا يُمسك به... مثلي ومثلك."

ساد الصمت لحظةً طويلة. لم يكن صمت خوفٍ أو حذر، بل صمت انبهارٍ هادئ، كأن الهواء نفسه صار أثقل بالمعاني. ثم أشار فيساكا إلى زاويةٍ صغيرة فيها سرير خشبي مغطى ببطانية رمادية:

-"نم هناك الليلة، سأحضّر بعض الطعام، وسنتحدث غدًا عن الغد."

-"شكرًا جزيلا لك، سيدي..."

-"لا تقل سيدي،"

قال مبتسمًا:

"قل فيساكا فقط. هذا الاسم يكفي."

جلس أدريان على السرير الصغير، في الغرفة الثانوية من المنزل، كانت هادئة، بسيطة، بها لوحات الطبيعة الجميلة..

-" ليس بتلك اللذة أليس كذلك؟"

-" على العكس، الطعام لذيذ! "

يجيب فيساكا بابتسامة مختلطة بالخجل:

-" أتمنى أن تكون صريحا "

ومرت أول ليلة، لأدريان، في أكثر البيوت غموضا في المدينة.

الفصل الثالث:الصيد المتقن

في مكان ما، بعيدٍ قليلا عن المدينة، يناقش جنديان أحمقان طبيعة وظيفتهما في وقت متأخر:

-" الأمر كله غباء، هذه المهمة وجب أن يكون لها حراسٌ كثر!"

-"إنها مهمة سرية جدا، ويتطلب إخفاء "... ثم دنا من زميله الجندي ليهمس في أذنه:

-" يتطلب إخفاء الفساد الملكي أشخاصا أقل، كلما زاد عددهم نقص احتمال حفاظهم على هذا السر! ناهيك عن أن الضابط لوكس يحرس الغرفة، هو الوحيد الذي يمتلك مفاتيحها"

-"أحيانا تبدو عالما أيها الأحمق"

-"وهل تظنني مثلك، بدماغ بحجم حبة جوز؟ "

لكن شخصا قادما إليهم في هذا الوقت وفي هذا المكان جعلهما يضعان يديهما على مقبض سيفيهما.

-"إلى أين أنت ذاهب؟ ولمَ تغطي أغلب وجهك، أيها القبيح؟" سأل أحد الجنديين بنبرةٍ حادة.

ابتسم الرجل بهدوء، ورد بصوتٍ متغير، ناعم وواثق:

-"أنا أحد معارف صديقكم، لوكس رايغن. هو في الداخل، صحيح؟ إني أحمل خبراً مهماً له."

نظر الجنديان إلى بعضهما، ثم سأل الثاني:

-"وما اسمك؟ من أنت بالضبط؟"

-"أنا ريون، تاجر ثري من الغرب، أوو، وبالمناسبة، أنا أحمل هدية لصديقي رايغن الشجاعين، هل تقبلان بهذه؟"

أخرج الرجل كيسين صغيرين مليئين بالعملات الذهبية، يلمعان تحت ضوء الشعلة الخافتة.

تردد الجنديان، لكن عيونهما لمعتا عند رؤية الذهب.

- "لا يمكننا السماح لك بالدخول"

-" على الأقل أعلماه، أنا أعلم أنه هنا، ولدي أعمال كثيرة أخرى، أعتقد أنه سيغضب إذا لم تفعلا.. "

-"حسنا سنقوم بإدخالك لكن بشرط"

-"وما هو؟ "

-"نريد ضعف هذا المبلغ"

-"حسنا.. "

وأخرج كيسا آخر، كما هو حال الكيسين السابقين،النقود الحقيقية في الأعلى والمزيفة الكثيرة في الأسفل،

سأل الأول، وهو يمسك الكيس بحذر.

-"وما الذي تحمله معك؟ "

-"نبيذ فاخر، إني أزف خبراً سعيداً لصديقكم! سيجعله يطير من الفرح"

وهو يرفع زجاجة نبيذ مزخرفة.

-"دعوني أدخل إليه، سأخبره بنفسي ولن أطيل."

صاح الجندي الثاني باتجاه النفق:

- "هاي، لوكس! يريد أحد أفراد عائلتك زيارتك! يبدو أن مفاجأة كبيرة تنتظرك!"

فتح الباب الحديدي بصوتٍ مزعج، ودخل الرجل الذي يضع لثاما على وجهه تماما مثل عادة الناس في الغرب.

كان في ذلك النفق شعلاتٌ مثبتة على الجدران تنشر ضوءاً خافتاً يكشف عن ممرٍ ضيق ينحدر إلى الأسفل.

في نهاية النفق، وقف لوكس رايغن، ضابط ملكي يرتدي زياً رسمياً، ينظر إلى الرجل بحذر.

-"مرحباً، لوكس رايغن,"

وهو يتقدم بخطوات واثقة.

-"مرحباً..."

رد لوكس، وهو يضيق عينيه.

-"من أنت؟ هل أعرفك؟ ولمَ جئت إلى هذا المكان؟"

-"لا تقلق، سأجيب على كل أسئلتك,"

-"إذن، ابدأ بذلك "

قال الرجل بهدوء، وهو يضع زجاجة النبيذ على طاولة صغيرة بجانب لوكس.

-"اسمي ريون، من عائلة ثرية، أبي كان تاجراً كبيراً من الغرب، لكنه توفي قبل أسابيع وترك ثروة كبيرة. قبل وفاته، كتب وصية لصديقه ثيراي رايغن. بحثت عن عائلته، فلم أجد إلا اسمك. أنت ابنه، أليس كذلك؟ مبارك لك، خزائن من الذهب في انتظارك!"

نظر لوكس إليه بدهشة، ثم قال متلعثماً:

- "حقاً؟ أعني... نعم، والدي! صحيح، والدي هو ثيرون رايغن. متى سأحصل على هذا النصيب؟"

-"أنا آسف," قال الرجل من الغرب، وهو يميل برأسه قليلاً.

-"ظننت أن اسمه ثيراي، أليس كذلك؟"

-"أ... نعم، نعم، أنت محق!"

رد لوكس بسرعة، وهو يحاول إخفاء ارتباكه.

- "أعتذر، العمل في هذا المكان المتأخر يجعلني أفقد صوابي. لكن... من غير اللائق أن تأتي إلى هنا، أليس كذلك؟"

-"ولم لا؟ أليس هذا مكان عملك؟ علاوة على ذلك، لدي عمل كبير وأشغال كثيرة بانتظاري، فهل سنحتسي هذا النبيذ، أم لا نخب الميراث!"

-"نخب الميراث!"

كرر لوكس بحماس، وهو يرفع كأساً صغيرة ملأها فيساكا من الزجاجة. شربا معاً، لكن الرجل كان يراقب بعناية. بعد لحظات، بدأ لوكس يشعر بدوار خفيف، عيناه تتثاقلان بسبب المهدئ الذي وضعه ابن التاجر في النبيذ

-"لدي فضول قاتل..." قال هذا الأخير، وهو يشير إلى بابٍ حديدي في الغرفة.

"ما الذي يوجد في تلك الغرفة؟"

-"إن ما فيها... لن يسرك," تمتم لوكس، وهو يكافح ليبقي عينيه مفتوحتين.

- "ليس لدي صلاحية للوصول إليها..."

نظر فيساكا، المتنكر على هيئة ابن التاجر، إلى لوكس طويلاً، ثم، وهو يراه يفقد وعيه شيئاً فشيئاً، وكان آخر ما رآها، هو احتساء فيساكا جرعة من عبوة صغيرة أخذها من جيبه: الترياق!

تحرك فيساكا بسرعة، ثم أخذ المفاتيح من جيب الضابط، ربط فمه بقطعة قماش ليمنعه من الصراخ، ثم فتح الباب الحديدي، ما رآه، جعله يتجمد في مكانه:

غرفة واسعة، مظلمة، تفوح منها رائحة الموت. جثث متناثرة على الأرض، بعضها قديم، متحلل، عظامها مكشوفة تحت طبقات الغبار، وبعضها حديث، ملطخ بدماء جافة، ووجوه مشوهة تحمل آثار الرعب.

كانت الجدران ملطخة بخطوط سوداء، كأنها شهدت صراعات عنيفة، شعر فيساكا بقلب ينبض بقوة، لكنه تمالك نفسه، مدركاً أن هذا دليل على جرائم الملك...

ولم يلبث طويلا قبل أن ينزع ثياب لوكس العسكرية بسرعة، بعد أن ربطه بحبل متين، وألبس الزي لإحدى الجثث الحديثة التي تحمل علامة تمرد على ذراعها، علامة نُقشت بحديد منصهر يذيب الجلد ليُخلد علامة العار:

"متمرد"!

أخذ رمحاً ملكياً ملطخاً بالدماء ووضعه داخل الثياب، ثم حمل الجثة على كتفه، لكن..

عندما خرج من الغرفة، اعترضه الجنديان عند مدخل النفق.

-"ما الذي حدث للوكس؟! "

سأل أحدهما، وهو ينظر إلى الجثة المغطاة بالزي العسكري.

-"وما هذه الرائحة؟"

-"أوه، أنا آسف!"

رد فيساكا، وهو يتظاهر بالارتباك.

"لقد أغمي عليه من كثرة الشرب، لكن لا تقلقا، سأقوده إلى بيته، لقد كتب إليه والدي المتوفى نصيباً كبيراً من ثروته. تفضلا، خذا هذا النبيذ الفاخر، لكن لا تكثرا، إنه هو ما تسبب بهذه الرائحة!"

أعطاهما زجاجة أخرى، وهو يبتسم بثقة.

-"انتظر"

كان الكلمة قد أزالت تلك الابتسامة على وجهه، ثم رد بضجر:

-" ماذا هناك"

-" تبدو هذه الرائحة أقوى من مجرد نبيذ"

رد فيساكا ببرود:

-" ذلك الصندوق هناك، أتريانه؟ إنه يحتوي على نبيذ كثير مثل هذا، هل يمكن أن يذهب أحدكما ليحضر زجاجة ونرى جودة هذا النبيذ الفاخر؟ "

أخذ الجنديان الزجاجة، وهما يضحكان:

-"حسناً حسنا، احرص على أن يصل سالماً إلى البيت فقط!"

كان الأمر وشيكا، لكنها لم يشكا في شيء، وتركاه يخرج مع الجثة، لكن بطريقة أو أخرى، كان فيساكا لينجو من هذا الموقف، خصوصا وأن خنجره الفريد ما زال في غمده، مشدودا على خصره.....

في تلك الليلة المظلمة، حيث كانت النجوم تتناثر في السماء كشظايا زجاج مكسور، خرج فيساكا من النفق حاملاً الجثة على كتفه، مغطية بزي لوكس رايغن كأنها شبح يعود من الموت...

كانت رائحة الدماء الجافة والتحلل تتسلل إلى أنفه، لكنها لم تكن أكثر إزعاجاً من الذكريات التي انفجرت في ذهنه فجأة..

...........قبل أسابيع قليلة...........

كان فيساكا وأدريان يسيران في أطراف المدينة، حيث تتلاشى الأزقة الضيقة تدريجياً لتفسح المجال للغابات المتشابكة، يبحثان عن أعشاب نادرة للألوان الطبيعية التي يستخدمها فيساكا في لوحاته.

كان الجو مشحوناً بضحكات خفيفة، فالأيام السابقة كانت مليئة بالمغامرات في السوق: حيل ذكية يخدعان بها التجار الجشعين، مثل ذلك الذي يبيع التوابل المغشوشة، حيث وضعا مسحوقاً يجعل التوابل تفوح برائحة عفنة بعد ساعات قليلة، فانفجر غضباً أمام زبائنه...

وانتقاما من المزعجين الذين يضايقون الفقراء.

كان أدريان يتعلم الرسم بسرعة مذهلة، يمسك الفرشاة بيد صغيرة مرتجفة في البداية، ثم يرسم نجوماً تبرق كأنها حقيقية، ويحفظ حروف القراءة كأنها أسرار مقدسة، يقرأ كتباً قديمة يجمعها فيساكا من الأسواق الخفية.

-"انظر، هذا النجم يشبه عينيك" قال أدريان ذات مرة، ضاحكاً، ورد فيساكا بابتسامة دافئة نادرة:

-"ربما يخفي سراً مثل قلبك الصغير."

لكن في تلك اللحظة، لمحا من بعيد مكاناً يشبه ثكنة عسكرية مهجورة جزئياً، محاطة بجدران حجرية متصدعة، يحرسها جنود ملكيون يتجولون بسيوفهم المعلقة، عيونهم حادة كالصقور. من مسافة

آمنة، رأى فيساكا فتحة تشبه نفقاً أو مغارة، مخفية جزئياً خلف أشجار كثيفة، يدخلها الجنود أحياناً ثم يخرجون ، كأنهم يحرسون سراً مظلماً.

راقب فيساكا المكان لأيام، مختبئًا في الغابة، لكنه يتجاهل أسئلة أدريان المتكررة بشأن تحديقه المتواصل في ذلك المكان:

-" لا شيء فقط أحب النظر إلى الأفق"

لكن المهمة لم تكن لتبدأ لو لم يعرف فيساكا اسم "رايغن" الذي سمعه من جنديّين في السوق يقوما بحراسته، صاحب المنطقة الحمراء، كانت هذه الكلمة كفيلة بأن يتيقن فيساكا أن الشخص الذي بداخل المغارة حتما هو رايغن.

شعر بغريزة داخلية أن هناك فساداً ملكياً يختبئ هناك، والأدلة على هذا الفساد كثيرة في المدينة ترك أدريان ينام، ثم غادر المنزل، لكن شخصا ما، من الحي، رآه!

..........عودة إلى الحاضر..........

كان ذلك التنكر إبداعيا بحق وليس بغريب عن فنان مثله، أمام مرآة متشققة، أضاف مادة لاصقة طبيعية، مصنوعة من راتنج الأشجار بلون بشرته، ليعدل شكل أنفه، جعله أعرض قليلاً

كرجل ثري من الغرب فأصبح محدبا في أعلاه، ثم رسم حاجبين خشنين بألوان دائمة، يجعلانه يبدو أكبر سناً، وارتدى عباءة زينها بحلي ادّخر سعرها حينما لم يستطع شراءة عباءة كاملة .

حمل معه زجاجة نبيذ محضرة بعناية، مغشوشة بمنوم قوي مستخلص من أعشاب الغابة، وترياقه في عبوة صغيرة في جيبه، إلى جانب كيسين من العملات الذهبية المزيفة جزئياً، لكنها تبدو أصلية تحت الضوء الخافت...

خرج مع الجثة، ثم وضعها في صندوق خشبي كان قد أخفاه مسبقاً في الغابة القريبة، ليضع به أي دليل يجده، ولو كان جثة!

مغطياً إياها بقماش أسود ليخفي الرائحة قدر الإمكان..

-"تبا... هذا لا يكفي!"

لكن الحل الوحيد أن يترك الصندوق و ينزل إلى السوق الرئيسي، حيث كانت الأضواء الخافتة تتناثر كنجوم متعبة، وقام بتفقد أشياء وضعها في مكان معين...

لكن ابتسامته عندما رأى أشياءه هنالك جعلته يطمئن بأن الأمر كله يسير وفق الخطة.

اشترى عطرا قويا لكنه رخيص بما يكفي لكي لا يبقي على الرائحة لوقت طويل، وبالطبع، فإنه ينفع في إخفاء بعض منها..

-"هذا أيضا لن يكفي أبدا... "

يحدث نفسه، ثم أخرج ما بقي لديه من النقود الحقيقية...

-" يا للهول، أهذا كل ما تبقى... "

قسّم الدراهم إلى نصفين، نصف اشترى به بعض الأعشاب الغريبة مع كمية اخرى من العطر، ونصف...

-" هل يمكنني أن أستأجر عربة؟ "

-"بالطبع سيدي، إلى أين أنتَ ذاهب؟ "

-"أريد أن أنقل بعض البضائع التجارية إلى صديق لي في نهاية الطريق مباشرة، بالقرب من الجسر المؤدية إلى القصر"

-"حسنا وأين البضاعة؟ "

-"هل يمكنك أن تحملها معي، إنها ثقيلة بعض الشيء"

-"حسنا سيدي ولكن هذا سيزيد من الثمن"

-"لدي خمسون عملة "

-" هذا لن يكفي توصيلها إلى المكان الذي تريد، ناهيك عن أنني أحملها معك! "

-"حسنا أوصلها إلى حيث تكفي"

-"يا إلهي ظننت تاجرا ثريا... "

-"انتظرني هنا"

عاد فيساكا مسرعا إلى مكان الصندوق يجر أكياس الأعشاب...

ثم أحكم إغلاقه وحمله بصعوبة، إن حملها في صندوق متعب!

-" وما هذه البضاعة"، ثم أمسك أنفه بيده من قوة العطر" وما هذه الرائحة؟"

-"إنها أعشاب عطرية قوية"

-" دعني أرى ما بداخلها "

-"صدقني، إنها مجرد أعشاب؟ "

-" ولم تكون هذه الأعشاب ثقيلة لهذه الدرجة؟ "

-"هنالك كمية من النبيذ كذلك! "

-"حسنا دعني أرى"

-" إننا نضيع الوقت في هذا"

-" لن أنقل شيئا لا أعلم ما هو"

وفتح الصندوق، لتنفجر رائحة قوية، أعشاب كثيرة فوق قماش أسود، وأواني النبيذ الممتلئة.. "

-" حسنا إذن.. "

كان الأمر وشيكا لكن فيساكا أسرع ليغلق الصندوق،

ودفع مسبقا لصاحب العربة..

-"حسنا سأحمل هذه الأشياء معك!"

حما الاثنان الصندوق معاً، وضعاه في الخلف، ثم ركب فيساكا بجانبه، يراقب الطريق بعينين حادتين.

عندما اقتربت من وسط المدينة، حيث يزدحم الناس حتى في الليل، كان فيساكا يزيل الأعشاب من الصندوق وأواني النبيذ ووضعها على العربة، لم يكن يهمه سوى ما سيفعله بالجثة في المرحلة القادمة، وفي تلك اللحظة، مزق القماش،وفتح الصندوق....

ثم أسقط الصندوق بما يحمله، في وسط الطريق المزدحم!

كان فيساكا ينتظر اللحظة المناسبة. ومع صوت حوافر الخيل الرتيب، رمى الصندوق فجأة إلى الشارع الرئيسي...

جثة في زي الضابط، مع الرمح الملكي الملطخ بالدماء، وشعار "المتمرد"! على ذراعها..

لكن فيساكا لم يلبث حتى قفز من العربة بسرعة البرق، اختفى في زقاق ضيق، انتبه الناس قليلا لرجل ملثم يركض، لكن الأمر لا يهم، إذ لا يمكن صرف الانتباه عن هذا الحدث الغريب، في المدينة!

و تاركاً صاحب العربة مذهولاً يصرخ:

-"ماذا الذي يحدث؟!"

لم يتوقف فيساكا، واصل الجري، والاصطدام بالناس، ثم بدأ بالسير ببطء، كان قلبه يخفق بشدة، بين مشاعر مختلطة، أو لعلها كانت مجرد أفكار، لم يعتقد فيساكا يوما أنه قد تبقى لديه بعض المشاعر.

ذهب مباشرة إلى زقاق خفي قريب أضيق، نفس المكان الذي تفقد فيه أشياءه قبل أن يبتسم، حيث كان قد أعد إناءً من الماء الممزوج بمذيب طبيعي..

غسل وجهه بسرعة، مزيلاً التعديلات على أنفه والحاجبين، عائداً إلى مظهره الأصلي.

من هناك، في مكان مرتفع قليلا يطل على المكان المقصود، راقب التطورات دون أن يُرى، إنه مجرد شخص مندهش متعجب!

-"حان وقت العرض! "

قالها في نفسه.

وسط صدمة الناس بالقرب منه، تركوا ما بيدهم ليشاهدوا الفوضى تنفجر، ويسمعوا صراخ الناس وانزعاجهم عند رؤية الجثة، ودهشة بعضهم...

جاء الحراس مسرعين، يضربون الناس بعصيهم ليفرقوهم، يفككون التجمعات بعنف، ستروا الجثة برداء ثم بدؤوا يصرخون في التجار الذين كانوا يبيعون في الليل وزبائنهم:

-"عودوا إلى بيوتكم، هيا، أيها الأوغاد!"

يفسدون سلعهم بدوسها تحت أقدامهم، يركلون الطاولات ويمزقون الأقمشة، آمرين الجميع بالانصراف تحت تهديد السيوف.

لكن ما لفت انتباه فيساكا بشكل مثير، وسط هذه الفوضى، هو عجوز تاجر يقف بجانب عربته الصغيرة، يبيع أعشاباً جافة، ولم يتحدث معه أي جندي إطلاقاً، ولا واحدٌ منهم، كان الجنود يمرون بجانبه كأنه غير موجود، يتجنبونه بعناية غريبة، وهو يراقب المشهد بعينين هادئتين، كأنه شيء فوق القانون.

كان الأمر كافيا ليصرف انتباه فيساكا عن مشهد الفوضى، إلى مشهد أغرب في هذه المدينة...

الفصل الرابع: سيفاليوس

-" هاي، أيها العجوز، كيف حالك اليوم؟ "

-" بخير، هل تعرفني أيها الشاب؟ "

-" لا، لكن سمعتُ أنك تبيع أعشابا تجعل الأطباء في حيرة من أمرهم! "

-" لا ليس لتلك الدرجة، الطبيب هو من يحدد مرضك وما عليه تناوله"

-" حسنا، أريد حفنة من هذه الأوراق "

-"هل تعرف اسم هذه العشبة؟ "

وضع فيساكا يده على رأسه يفرك شعره حائرا ويبتسم بغباء:

-" لا أعرفها بصراحة"

-"وكيف تشتري شيئا وأنتَ لا تعرف ما تفعل به؟ "

ابتسم فيساكا في وجه العجوز، ثم قال كلاما جعل بشرته تتحول إلى زرقاء داكنة رغم وجود تلك التجاعيد:

-"لكنني أعرف أنك جاسوس مزدوج! أيها العجوز إيرلان"

.... قبل أيام قليلة ....

في قلب القصر الملكي، حيث ترتفع الأبراج الحجرية كأنياب عملاقة تخترق السماء السوداء، كان الهواء ثقيلاً برائحة الشمع المحترق والتوتر المكبوت.

الغرفة الملكية، تلك القاعة الواسعة المبنية من رخام أبيض ملطخ بذهب خافت، كانت مشحونة بجو من الرهبة يجعل حتى النسيم يتجمد.

جدرانها مزخرفة بلوحات الملوك السابقين، عيونهم الحجرية تحدق ببرود، وأرضيتها مغطاة بسجاد أحمر يمتص خطوات المارة كأنه يبتلع الأسرار...

في المنتصف، يجلس الملك على عرشه المرتفع، مصنوع من خشب البلوط المطعم بعظام أعداء قديمين، وجهه هادئ كبحيرة جليدية، لكن عينيه تحملان بريقاً يشبه سيوفاً مخفية تحت الثلج.

حوله، يقف الوزراء والمستشارون في صفوف صامتة، ملابسهم الفاخرة تتمايل قليلاً مع كل نفس، كأنهم أشجار في عاصفة مقبلة، كان من بينهم شخص، على غير العادة، فيما يخص هندام

حاشية الملك، كان شخصا ملثما، يغطي وجهه، نظراته المرعبة كفيلة بإسكات من يشاهدها بأن لا يطرح ذلك السؤال: لَماذا يغطي وجهه.

لأن ذلك الشخص، يعتبر ثاني أهم رجل في البلد: القائد الأعلى لأجهزة الأمن الداخلي، أو باللقب الذي اشتهر به-"سيف الملك"-.

كان يقف إلى يمين الملك نفسه، جسده الطويل كرمح، وجهه خالٍ من التعبير إلا من ندبة قديمة في وجهه تبدو نخطأ في لوحة مثالية.

يدير سيف الملك أجهزة الأمن بمختلف فروعها، ونجح في بناء شبكة قوية أبقت على النظام الملكي سائرا طوالَ سنين حكمه، حتى قيل أنه ليس من عالم البشر...

لأنه ببساطة، شخص لم يكن له اسم، إنه نتيجة تجارب نفسية قام الملك بها تستهدف أشخاصا يتلقون تدريبات عسكرية قاسية منذ نعومة أظافرهم.

وفي تلك اللحظة، انفتح الباب الحديدي، بصوت مزعج يشبه صرير عظام، واندفع مرسول داخل القاعة، وجهه شاحبٌ، وعرقه، يتساقط كقطرات دم.

كان يرتدي عباءة ممزقة جزئياً من الجري عبر الأزقة، ويده تمسك رسالة مختومة بختم ملكي.

انحنى أمام العرش، ركبتاه ترتجفان، ينتظر الإذن بصمت يملأ القاعة توتراً.

رفع الملك يده ببطء، إشارة خفيفة، فنهض المرسول قليلاً وقرأ الرسالة بصوت مرتجف:

- "جلالة الملك... إنها رسالة من ضابط في الحرس الملكي في وسط المدينة، جثة ضابط ملكي، لوكس رايغن، وُجدت في وسط المدينة... ملقاة من صندوق... برمح ملكي ملطخ بالدماء... شعار المتمردين على ذراعها... الفوضى انتشرت قبل أن نُسيطر... لكننا قمنا بواجبنا "

ساد صمت مدروس، غضب الملك يتجمع كعاصفة داخلية، لا ينفجر بل يتجمد، ارتجف المرسول أكثر، عيناه مثبتتان على الأرض، خوفاً من أن يرفع الملك رأسه.

لكن الملك فعل ذلك ببطء شديد...

عيناه تضيقان كشفرتين، ثم قال بصوت هادئ يحمل قوة الزلزال:

- "جثة... في المدينة... برمح ملكي؟"

توقف لحظة، يدور كأسه في يده كأنه يقيس الدماء المقبلة، ثم أضاف:

- "ومن فعل ذلك"

أجاب المرسول في خوف شديد:

-" جلالتك، لقد شاهد أعيان رجلا يعدو بين الأزقة الضيقة لكنه اختفى وسط الحشد"

قال الملك بعينين ضيقتين باردتين:

-"ولِمَ يستحق هذا انتباهي؟ "

فأجاب صاحب الرسالة:

-"جلالة الملك، فيما يخص الضابط لوكس إيغان، إنه المسؤول عن المكان الذي يُعدم فيه المتمردين، والجثة.. "

أتى شخص آخر ليهمس في أذن المرسول، ثم أكمل المرسول:

-" جلالتك، بلغنا الآن أن الجثة ليست للضابط، وإنما لشخص من المغارة، ضمن عصابات التمرد، لقي حتفه تحت حكم الإعدام"

أدار الملك وجهه نحو القائد الأعلى، "سيف الملك"، عيناه تلمعان بأمر لا يُناقش:

- "أريدك أن تصلح هذا، أريد هذا القارض حيا"

ثم التفت إلى أحد المستشارين، الذي انحنى فوراً:

- "أخرج للناس وأخبرهم أن الملك حزين لموت أحد رعاياه الأبرياء، واجعل الدموع تبدو صادقة، ثم أعلن مكافأة عن كل من تكون له شهادة قد تنفع في القبض عن المجرمين"

توقف، عيناه تتجهان نحو النافذة البعيدة، كأنه يرى المغارة في أفق المدينة:

-" تلك المغارة، لن أتكلم مرة أخرى في الحراسة عليها من الآن وصاعدا...

أحضروا لي الجنود المسؤولين عن هذه الجثث... لأتحدث معهم. ولا تفعلوا لهم شيئاً... بعد."

نهض الجميع في صمت، ينفذون الأوامر كآلات، بينما يبقى الملك جالساً، يدور كأسه، يبتسم ابتسامة باردة تخفي عاصفة...

في قاعة مهيبة أخرى، تملؤها أعمدة من المرمر الأبيض اللامع كأنياب عملاقة، جلس "سيف الملك" على مقعد منخفض من الحديد الأسود، لا يليق بملك بل بقاضٍ يعرف متى يقطع الرأس بالسيف، ومتى بكلمة. أمامه، صف طويل من الجنود:

-" انزلوا إلى المدينة وأحضروا لي كل من كان له علاقة بسياقة العربات، إن لم تحضروهم قبل أن يحضر الجنود المسؤولين عن المغارة...

تعرفون ما أنا قادر على فعله"

خرج الجنود مسرعين من القصر، منتظرين أن ينزل الحراس الجسر ليعبروا إلى المدينة، يراقبهم سيف الملك من نافذة القصر...

يمشي، ويفكر، ذهابا، وإيابا..

-" لن يكون الأمر بهذا السوء"... يقول في نفسه...

وبعد مدة قصيرة، رآى جنودا قادمين، وأحضروا معهم شخصا واحدا...

- "من هذا الشخص؟"

- إنه يقول أنه سائق العربة التي سقطت منها الجثة"

- إلى الداخل، عند الملك"

اندفع "سيف الملك" داخل القاعة الملكية، خطواته الثقيلة تتردد على السجاد الأحمر ، يجرّ خلفه سائق العربة بين جنديين يمسكان ذراعيه ويدفعانه للأمام.

كان السائق يتعثر، وجهه أصفر كورقة خريفية، عيناه واسعتان من الرعب، يلقي نظرات مذعورة على الجدران المزخرفة، وهو أكثر الناس حيرة من هذا الأمر.

وزاد الرعب لحظة لمحه تمثال الملك الجالس، وعلى الجثث الثلاث التي تقف أمامه: لوكس رايغن، مغطى بالعرق والدماء الجافة، والجنديان اللذان كانا يحرسان النفق، وجهاهما شاحبان كالموتى، يرتجفان تحت نظرة الملك الباردة.

لكن الجالس، لم يكن تمثالا أبدا...

كانت المحاكمة قد بدأت بالفعل، الهواء مشحون برائحة الخوف... والشمع كذلك، الملك مزال يدور كأسه ببطء، حركة لا يأتي بعدها إلا...

كانت عيناه مثبتتان على لوكس الذي يحاول الوقوف مستقيماً، لكن ركبتاه تخونانه.

- "جلالة الملك... لم نكن نعلم أنه غير تاجر..."

تمتم أحد الجنديين، صوته يرتجف كورقة في الريح.

قاطعه الملك بصوت حاد كسيف:

- "اخرصا! من سمح لكما بالتحدث أكثر؟ سمعت ما يكفي لأعلم أنني إذا لم أؤدبكم بما فيه الكفاية، سيتعتقد الناس بعفوي عنكم أنني مجرد نكرة عطوف"

ثم أكمل ساخرا:

-" وبناء على الاستشارة من طرف الوزراء المبجلين والأخذ برأي كبار البلاد وعلى الأعراف والقوانين التي تضمن حقوق الناس... سوف أحكم بالإعدام."

والجميع يعلم أنه لا استشارة ولا قرار لغيره من الحاضرين.

تجمد الجميع، صمت يخنق القاعة. لوكس رفع رأسه ببطء، عيناه مليئتان بالرجاء:

- "سيدي... أرجوكم، اعفوا عنا..."

ابتسم الملك ابتسامة باردة، كأنها قناع من جليد:

- "حسناً... سأعفو عنكم، إذا ما الذي تريدونه."

- "نعم!"، صاح الثلاثة معاً" نريد أن تبقي على حياتنا فقط" أصواتهم مختلطة بالأمل المذعور.

مال الملك إلى الأمام قليلاً، صوته ينخفض إلى همس قاتل:

- "إذن... إن لم تختاروا الموت..

اعلموا أنه سيكون هناك خيار أشر منه. والآن انصرفوا..."

نهض الثلاثة بسرعة، يتعثرون في خطواتهم، يخرجون من القاعة كأشباح مطرودة، أجسادهم ترتجف من الرعب، مدركين أن "الخيار الأشر" قد يكون تعذيباً يستمر أياماً، أو مهمات انتحارية...

الباب يُفتح لهم ويبعدون من يقف خلف الباب يريد الدخول...

نظر إليهم سيف الملك الذي كان قد دخل مسبقا مع سائق العربة ، ثم تقدم خطوة، ينحني قليلاً:

- "جلالتك... هذا سائق العربة التي سقطت منها الجثة."

رفع الملك حاجباً، عيناه تتجهان نحو السائق الذي كان الآن يرتجف بعنف، وجهه مبلل بالعرق، بعينان واسعتان.

كان قد سمع الحوار كله، رأى عيون الملك الباردة كالثلج، تلك العيون التي حكمت على ثلاثة رجال بالموت أو أسوأ، وشعر بأن روحه تذوب داخل جسده.

- "هات ما عندك"، قال الملك بصوت هادئ، لكنه يحمل وزن جبل.

ابتلع السائق ريقه، ونطق بكلمات أغلبها كان تلعثما قبل أن يصرخ الملك في وجهه:

-" تكلم! "

كلماته تخرج متقطعة كأنفاس محتضر:

- "ج-جلالتك... ظننت أنه مجرد تاجر من الغرب... وقد حاولت التأكد مما ينقله، لكنني وجدت أعشاباً وأواني نبيذ غريبة... إنه ليس ذنبي..."

مال الملك إلى الأمام، عيناه تضيقان:

- "كيف كان؟"

أخذ السائق نفساً عميقاً، يحاول تذكر التفاصيل تحت ضغط الرعب:

- "كان يلبس حلة تاجر من الغرب، مثلما لا يُرى إلا عيناه... كان أنفه محدباً في أعلاه، وحاجباه خشنين جداً، وعليه بعض التجاعيد التي تجعله يبدو أنه في الأربعين أو الخمسين..."

أشار الملك بيده ببطء، إشارة للانصراف. وخرج السائق مسرعاً، يتعثر في خطواته، يُجرّه الجنديان خارج القاعة ...

التفت الملك إلى "سيف الملك"، صوته يحمل سؤالاً حاداً:

- "ماذا تقول؟"

توقف "سيف الملك" لحظة، يفكر، عيناه تكنسان الفراغ كأنه يرسم صورة الرجل في ذهنه:

- "جلالتك... ربما يكون الشخص أصغر في السن قليلا وأقرب منه إلى الشباب، إذ أن حمل جثة لتلك المسافة، والعدو بسرعة في المدينة، يوضحان هذا"

- "ليس هذا ما يجعله كذلك، وكم من وحشٍ في الستين أقوى وأصلب من الصبيان في عز شبابهم، لكن ما يجعله كذلك غالبا هو أن هذا الفعل فعل صبيان طائشين"

رفع سيف الملك رأسه متعجبا من دهاء الملك.

أومأ الملك برأسه ببطء، عيناه تلمعان ببريق قاتل:

- "تولّ أمره. أريده حياً... أو ميتاً، لكن أريد وجهه أمامي."

انحنى "سيف الملك"، ثم استأذن ليخرج من القاعة بخطوات مدروسة، ذهنه يدور كآلة حرب.

في الخارج، يهمس لنفسه:

-" تاجر الغرب إذن...

اسمعوا! سجلوا اسم كل من يدخل ويخرج المدينة من الحدود الغربية بنفس تلك الصفات! "

..........عودة إلى السوق ....

تجمد العجوز في مكانه، لكنه ابتسم ابتسامة خفيفة:

-" ما الذي... ماذا تقول؟ أنا لا أعرف ما الذي تتحدث عنه"

-"حسنا حسنا، أنتَ أيضا ممثل بارع، انسَ الأمر،

كم تساوي هذه الحفنة من الأوراق المجففة؟ "

-" خمسة وثلاثين عملة"

-"ماذا!! هل جئتَ بها من المحيط أم ماذا؟ "

-" يمكنك إعادتها إن شئت "

-" يا إلهي.. لقد أفلست حقا...

اسمع، تعال عندي، لدي محل صغير للوحات المرسومة، انعطف يسارا في الزقاق الثاني وأكمل، حتى تجد وجهي "

-" قلت لك أني لا أعرف" ، -" قلت لك تعال"

الفصل الخامس: إبرة ضد جندي

في اليوم التالي، حين انبثقت الشمس كعين حمراء تتربص بالمدينة، كان السوق يغلي بأصوات الباعة وضجيج العربات. الهواء مشبع برائحة التوابل المحترقة، والخبز الطازج...

في زقاق جانبي، تحت مظلة قماشية ممزقة، جلس فيساكا وأدريان على بساط صغير مليء بلوحات ملونة، ألوانها الزاهية تتناقض مع الوجوه الشاحبة للمارة.

كان أدريان يرتب الفرشاة بيدين صغيرتين، عيناه البريئتين تلمعان بفضول:

- "فيساكا... ما سر تلك اللوحات التي ترسم فيها ما بداخل جلد الإنسان! إنها لوحات غريبة حقا"

ابتسم فيساكا ابتسامة خفيفة، يده تمسك بفرشاة مغموسة في أحمر الدم:

- " حسنا، لنقل أنه شغف الرسام برسم كل ما معقد "

- "ولماذا لا تبيع تلك اللوحات، إنها تحف، ستجي الكثير منها"

-"أعتقد أنه علم نادر، وسيأتي وقت أشاركه مع الناس"

-" هل تعرف ما بداخل الإنسان حقا؟ "

-" لقد درست الكثير عن هذا بالفعل!

في تلك اللحظة، لمح فيساكا العجوز إيرلان من بعيد، يساوم تاجر فاكهة بصوت خشن، يداه ترتجفان قليلاً وهو يحسب العملات. ثم اقترب من فيساكا عند تاجر آخر، وبدأ فيساكا يرفع صوته فجأة، يخاطب زبوناً بصخب متعمد:

- "اختيار رائع سيدي! هذه اللوحة بخمسة وستين بنساً فقط! لن تجد هذا العرض سوى اليوم!"

كان الزبون رجلاً في متوسط العمر، يرتدي عباءة خضراء، يخرج عملة ذهبية لامعة تساوي مئة بنس. أعطاها لفيساكا، الذي أعاد له خمسة وأربعين بنساً نقدية بسرعة.

- "ايها الفتى... لقد أعدت خمسة وأربعين بنساً!"

قال الزبون متعجباً.

ابتسم فيساكا ببراءة مصطنعة:

- "نعم! مئة ناقص خمسة وستين هي خمسة وأربعين. فمئة ناقص ستين هي أربعون، وبما أنني أضفت لسعر اللوحة بخمس بنسات، وجب عليّ أن أردها لتكتمل المئة..."

ضحك الزبون ساخراً، يهز رأسه:

- "نعم... أكيد!"

ثم غادر، يتمتم بكلمات غير مفهومة، على الأرجح كانت يا لغبائه.

في تلك اللحظة، نادى فيساكا على إيرلان بصوت عالٍ، يجذب انتباه المارة:

- "هيا أيها المحارب القديم! أنت تدخر بعض المال لأحفادك، لكن لن يكون التزيين بهذه اللوحات الجميلة إهداراً للمال، أليس كذلك؟"

رفع إيرلان رأسه، عيناه تضيقان، لكنه اقترب ببطء. أشار فيساكا إلى لوحة صغيرة: ليلة سوداء مليئة بنجوم لامعة، لكن في المنتصف، شجرة تنطلق من الأرض، شديدة الالتواء، وتوضح الشمس كأنها ثمرة من ثمارها، كأنها عين تتربص في الظلام.

- "خذ هذه... هدية لمحارب عجوز."

دفع إيرلان العملات بصمت، يأخذ اللوحة بيد مرتجفة قليلاً.

فجأة، بدأ فيساكا يغني بصوت خافت، لكنه يصل إلى أذن إيرلان كَسَهم:

يا زهرة الحقل القديم،

طيري إلى حقولك مع الرياح...

فإني سآتي لأقطف ثمارك.

تجمد إيرلان للحظة، وجهه يتحول إلى قناع من الحجر، ثم غادر إلى مكانه بسرعة، يختفي خلف عربته كظل.

عندما وصل إيرلان إلى محله، في زقاق ضيق تفوح منه رائحة الأعشاب الجافة والتراب، دخل إلى غرفة خلفية صغيرة، بابها خشبي متآكل، وعربته تقف خارجاً كحارس صامت. أغلق الباب، يضع اللوحة على طاولة قديمة مليئة بقوارير زجاجية لزبوب الأعشاب، وأكياس قماش. تفحص اللوحة بعناية تحت ضوء مصباح زيتي خافت.

لم يجد شيئاً في البداية، سوى تلك الشجرة، والشمس الغريبة التي تبرق كعين شيطانية. لكن عيناه المجربة انتبهتا: الشمس ليست من اللوحة الأصلية، بل قصاصة ورقية لاصقة بدقة، حوافها ناعمة كأنها قُطعت بسكين فنان.

نزعها بلطف، وهو يسمع صوت الورق يتمزق خفيفاً. تحتها، وجد العجوز ورقة أخرى مخفية، مزق الطبقة العلوية التي تكون لوحة الرسم بأظافره، ليجد رسالة مكتوبة بخط دقيق، حبر أسود يبدو كدم:

•إن عظم إنجاز تلحقه بعدوك أن تجعله يعتقد أنه أقوى منك.

• من الآن وصاعداً، سنتواصل بالبيع والشراء.

• عندما تأتي لمكان بيعي، اشترِ من المحلات بقربي،

• ولا تشترِ من عندي إلا عندما أغني الأغنية...

• إذا كان لديك أي شيء تخبرني أو تعطيني إياه، سأكون لك شاكراً.

• أيها العجوز، لا مزيد من محاولات الخداع الفاشلة.

• أنا الذي جلب تلك الجثة في المدينة.

•أي حركة خاطئة منك، ستنال عقابها.

• فأنا لا أخشى مما لا أعرفه... بل أخشى مما أعرفه...

جلس إيرلان على كرسيه المتهالك، الرسالة تذوب في اللهب، لكن كلماتها تحرق ذهنه كسم..

كيف اكتشف هذا الفتى أمره؟

هو الذي عاش عقوداً في الظلال، يبيع الأعشاب نهاراً ويبيع الأسرار ليلاً.

جاسوس للملك.. لكنه لا يرد الآن. يتريث. يراقب.

"مزدوج؟" من أين أتى بالكلمة...

كيف يعلم أنني أريد أن أسقط الملك وجنده...

يهمس لنفسه، عيناه تتجولان في الغرفة الخلفية كأن الجدران تسمع.

"ولماذا يختارني أنا بالضبط ليخبرني الحقيقة؟ هل هو أهل للثقة... أم أنه... مجرد فخ؟"

بعد تفكير طويل، تحت ضوء المصباح الخافت الذي يرقص كشبح، خطرت في باله فكرة. صعبة التنفيذ، لكنها فكرة قوية. أخرج من جيبه عملتين ذهبيتين، ثم نادى على صديقين يثق بهما منذ

سنين: أحدهما، رجل نحيف يُدعى غارين، عيون حادة كصقر، والآخر، سمين قليلا قد يبدو مرحا يُدعى تورك، يبيع الحلويات في الأعياد.

- "غارين... اذهب و راقب الفتى الرسام من بعيد، في شارع الفاكهة، واحفظ تفاصيل لباس بدقة، ثم عد بسرعة"

-وأنت، تورك... كن بائع حلويات وعربة ألعاب أطفال، ثم قم بالمرور عليهما، و أغرِ الصبي بلعبة... ولا تُكشف"

أسرع الاثنان يؤديان مهمتهما، غارين يُسرع ليجلب المعلومات التي كُلّف بجمعها، وتورك يعدّ عربته بسرعة، مليئة بحلوى ملونة وألعاب خشبية جديدة عن السوق تصدر أصواتاً مرحة، من صديقه هو الآخر.

في السوق، كان فيساكا وأدريان يبيعان لوحاتهما،

فجأة، مرّ تورك بعربته، يرن جرساً صغيراً، ينادي بصوت مرح:

- "حلوى طازجة! ألعاب جديدة للأطفال الأذكياء! تعالوا، جربوا لعبة الحظ... الفائز يأخذ كل شيء!"

توقفت عينا أدريان على لعبة خشبية دوارة، ملونة بأحمر وأزرق.

- "فيساكا... هل يمكنني الذهاب؟ ربما سأربح مبلغا كبيرا!"

نظر فيساكا حوله، ثم قال مبتسما:

- "لكن عد بسرعة."

ركض أدريان خلف العربة، التي زادت سرعتها قليلاً، ثم اختفت في زقاق جانبي، وفيساكا يتابع بعينيه، لكن أسئلة الزبائن الكثيرة عن معاني اللوحات جعلته يركز انتباهه عليها...

عندما وصل أدريان، أغراه تورك بابتسامة عريضة:

- "تعال يا ولد! تبدو ذكيا بالفعل، هنالك لعبة في الداخل، للأذكياء فقط، والرابح يفوز بكل شيء!"

دخل أدريان متحمساً، وفجأة، أغلق تورك الباب، يقفل بمفتاح، ويهمس:

- "لا تقلق، لحظات وأعيد فتح الباب."

في الغرفة الخلفية، عند مكان بيع العجوز، عاد غارين ومعه تفاصيل لباس أدريان.

-"حسنا، اشترِ مثلها إن وجد، واجعلها تبدو قديمة بمثل ثياب الصبي"

ثم أضاف:

- "نريد واحد من أطفال المشردين الذين نستخدمهم كعصافير تخبرنا عن أوضاع كل مكان...

ألبسه نفس ثياب أدريان، غطِ وجهه بكيس أسود وأخبره أن لهذا عائدا ماليا، وقل له أن يدعي أنه مُقيد وأن على فمه ما يمنعه من التكلم، ثم قم بالمرور بالقرب من الفتى الرسام."

- "لماذا؟ وما سر الفتى الرسام؟"

- "افعل ذلك فقط. الأمر برمته يعتمد على هل سيذهب الطفل إلى صديقنا بائع الألعاب أم لا..."

أسرع غارين للبحث عن الثياب، ثم عاد مسرعا إلى صديقه العجوز، ثم غادر مجددا للبحث عن الطفل الذي سيلعب دور أدريان المقيّد، في نفس الوقت، يُعدّ العجوز الثياب ليجعلها تبدو وكأنها قديمة...

والنتيجة، طفلٌ في نفس طوله، وجهه مغطى بكيس أسود يسمح له بالرؤية، يداه مكبلتان بحبل رفيع، يسحبه غارين متنكراً كحارس بزي رسمي أحضره له العجوز...

كانت الصدمة بادية على وجه فيساكا الذي نسي ملامح المشاعر الحقيقية منذ زمن، ما الذي جعل يداه مكبلتان عند المعصم! ويمسك الحارس لفافة الحبل ويسحبه!

"أدريان!"، صاح في قلبه.

يفكر و يفكر ويفكر،ثم نظر إلى لوحاته، حتى وقعت عينه على إبرة عند طرف لوحة، أمسكها، وتساءل:

-" لم وقعت عيني على.... "

قصد فيساكا بائع التفاح بقربه و اشترى صندوقاً مليئاً بالتفاح الأحمر، ثم مشى باتجاه الجندي (غارين) الذي يجر الطفل...

فجأة، اصطدم فيساكا بغارين، "متعمدا" حتى سقطت كل التفاحات من الصندوق...

- "آسف يا سيدي الحارس!"

صرخ غارين كعادة الجنود:

-"ألا ترى إلى أين تسير، هل فقدت عقلك أم فقدت بصرك!"

في تلك اللحظة، واصل فيساكا التقاط التفاحات، لكنه وبخفة وضع الإبرة في تفاحة معينة، دون أن ينتبه أحد، مد ذراعيه اللتان تحملان الصندوق وقال للحارس:

-"خذ هذا التفاح كله... هدية مني!"

رد الحارس غاضباً:

- "أنا لن أقبل صدقاتك!"

كان رد متوقع، صدّقت ذلك ابتسامة فيساكا:

- "حسناً...دعني أعطي هذه التفاحة على الأقل لهذا الطفل الصغير."

مد فيساكا التفاحة للطفل دون انتظار إجابة، يضعها في يده المكبلة عند معصمه..

-"أخبرهم بأن عليهم أن يدعوك تتناولها"

كانت خطة فيساكا أن يستخدم أدريان الإبرة، يخز يد الحارس بقوة، فيفلت الحبل لا شعورياً، ويهرب...

لكن... الطفل لم يفعل شيئاً، بل وخزته الإبرة هو الأخير، وقد أسقط تلك التفاحة...

هنا، عرف فيساكا، أن هذا الطفل ليس أدريان، إلى حد كبير جدا!

نظر يميناً وشمالاً، حتى رأى العجوز يشاهد من بعيد..

أسرع فيساكا للعجوز، يمسكه من رقبته بقوة، عيناه تحترقان:

- "أين أدريان؟!"

ابتسم إيرلان ابتسامة عريضة، يشير بيده لتورك الذي كان يقف بعيداً بعربته بأن يطلق سراحه، فتح تورك باب العربة، خرج أدريان مذهولاً، يركض نحو فيساكا..

-" كان عليّ فعل هذا "

-" كان عليك فعلها دون أن تُدخل الصبي في الموضوع "

-" كان عليك الحذر، في اللحظة التي اختفى فيها عن ناظريك"

-" ستدفع الثمن أيها العجوز الأحمق... "

-" وكيف ستفعل ذلك"

يتقدم فيساكا وعيناه تتقدان غضبا، واقترب من العجوز ثم رفع يده....

لكنه أخفضها...

الفصل السادس: انبعاث النور من السمو

السوق كان يهدأ تدريجياً مع اقتراب الغروب، والشمس كأنها تذوب خلف الأسطح مثل دماء تتساقط من جرح، والظلال تطول كأصابع تتحسس الوجوه...

على كل حال، كانت بعض الرسومات التي يبيعها غريبة..

كانت أياما قليلة تبادل فيها فيساكا وإيرلان معلومات مهمة، كانت أقوى المعلومات سرية وتأثيرا في المملكة، لكن ذكاء فيساكا هو ما جعلها كذلك..

لكن أغرب ما وُجّه كسؤال إلى إيرلان، رسالة بها سؤال واحد من فيساكا:

-"غرفة الطباخ، أهي من جهة المدينة أم جهة البحر!"

فيساكا كان يرتب لوحاته ببطء كالعادة، يمسح الغبار عن واحدة تُظهر طائراً أسود يحمل في منقاره مفتاحاً صدئاً، رمز للحرية المسروقة، أو ربما للسر المكشوف...

اقترب رجل عادي المظهر، يرتدي عباءة رمادية بالية، وجهه نصف مخفي تحت قبعة واسعة. عيناه حادتان، لكنهما تتظاهران بالفضول البريء، يخفيان ما وراءهما، تعلو عينه اليمنى ندبة واضحة، لم يُخفها قِدَمُ الزمن

-"كم سعر هذه اللوحة؟"

سأل، مشيراً إلى لوحة الجبل المشوه.

فيساكا رفع عينيه بابتسامة مصطنعة.

-"أهلاً بك سيدي، ثلاث عملات ذهبية فقط!"

الرجل أمال رأسه، يتفحص اللوحة كأنه يبحث عن عيب.

-"تبدو أغلى من سعرها صراحة"

فيساكا ضحك ضحكة خفيفة:

-"لم يعد الناس في هذا الزمان يهتمون بالفن كالسابق، أليس كذلك؟ "

الرجل تردد لحظة، ثم اقترب أكثر، صوته ينخفض:

-"نعم صحيح... آه... في الحقيقة، لدي سؤال لك. هل يمكنني؟"

-"أكيد، تفضل، على الرحب سيدي، كيف أساعدك؟" رد فيساكا، يداه تتحركان بسلاسة لترتيب فرشاة

-"هل يمكنك أن تقول أين كنتَ قبل أربعة أيام في الليل؟"

السؤال سقط كصاعقة في صمت، فيساكا لم يرف جفن، لكنه شعر ببرودة تسري في عروقه كسم بارد.

-"قبل ثلاثة أيام؟"

"نعم."

فيساكا أمال رأسه، يتظاهر بالتفكير، ثم لوح بيده نحو تاجر ألوان في الزاوية ، رجل نحيف يبيع عبوات ملونة:

"كيف تسير الأمور أيها المحتال؟"

صاح فيساكا بصوت مرح، ليبدو عكس ما يضمر كليا،

التاجر رد بضحكة:

-"حسناً فيساكا، هذا يكفي!"

ثم عاد فيساكا إلى الرجل، يبتسم ابتسامة واسعة.

- "أعتقد... أعتقد أنني خرجتُ ليلاً لأشتري بعض عبوات الألوان للوحاتي الفنية، إنني زبون جيد لذلك الشقي، يمكنه أن يخبرك بهذا."

توقف لحظة، عيناه تلمعان بمزيج من الغرابة والريبة:

-"لكن هل يمكنك أن تخبرني ما الغرض من السؤال؟ هل أنتَ من المعجبين! "

الرجل تردد، يمسح حاجبه بعصبية، يبدو أنه لا يعرف كيف يتعامل مع أسئلة في مثل هذا الشأن:

-"أُو.... نعم، نعم! أنا من المعجبين بلوحاتك."

-"حسناً إذن، سأقوم بالتوقيع لك!"

قال فيساكا، وهو يأخذ اللوحة بسرعة ويخط اسمه بخط مزخرف.

-"شكراً لك."

انصرف الرجل مسرعاً، يرتاد دكاكين أشخاصٍ آخرين كأنهم اختيروا سابقاً، تاجر خبز، صبي يبيع فواكه، حارس سوق نائم...

فيساكا لم يبلع ريقه حتى توارى عن الأنظار تماماً، حيث اختفى خلف حشد من المتسوقين.

-"سحقاً، كيف...!!!"

همس لنفسه، يده ترتجف قليلا على الطاولة، لم يكن يتوقع أن خططه المحكمة قد تكون مكشوفة إلى هذا الحد، أو ربما توقع لكن ليس لهذه الدرجة..

لكن الحقيقة المرة هي أن شخصا رآه يخرج ليلاً حاملاً أشياء مشبوهة، ذلك الكيس المليء بأدوات التنكر والفخاخ،رغم أنه لم يراها، لكن المكافأة على رأسه كانت تستحق أن يبلغ الجنود، والذين بدورهم أبلغوا سيف الملك نفسه، رجل لا يعرف أحد تفاصيل وجهه الحقيقي،لكن هذه المرة، قرر أن يراه الجميع، ولن يكتشف أحد بأمره، نزع اللثام، متنكراً بهيئة زبون عادي، يستجوب المشتبه بهم واحداً تلو الآخر.

لكن فيساكا ورغم السؤال المفاجئ، نجح بإيجاد حجة غياب قوية، شهادة تاجر تشفع له..

فجأة، لمح العجوز فيز الزاوية، يتظاهر بشراء تفاحة، كالعادة، عينا فيساكا اتسعتا، يومئان له بلمحة سريعة:

-"انظر إلى هذا الرجل هناك!"

قبل أن يتوارى الزبون بلمح البصر، العجوز لمح بعض ملامح الوجه تحت القبعة، عيونٌ تتصيد ما ترى.

بسرعة البرق، أمسك فيساكا قلمه وورقة صغيرة، كتب بخط سريع:

-"ذلك السافل استجوبني أين كنت في ليلة الجثة في السوق! "

ثم تركها في مكان يلتقطها العجوز دون أن ينتبه أحد، تحت كومة من اللوحات.

العجوز بعدما ما قرأ، كتب رسالة بدوره، أرسلها مع طفل يعمل ضمن شبكته، صبي صغير يركض كالأرنب.

الرسالة وصلت:

-"أنتَ في خطرٍ كبير، قد يكون هذا الشخص عميل أمنٍ عند الملك، أو..

أو قد يكون نفسه سيف الملك! الرجل الثاني الأعلى سلطة في البلاد!"

أمسك فيساكا الورقة، عيناه متسعتان من الصدمة. ثم... بدأ يضحك بقهقهة عالية، ممزقاً إياها إرباً إرباً، و القطع تتطاير كأوراق خريف ميتة.

-"حسناً حسنا... لقد بدأت الحرب إذن."

قاطعه أدريان، الذي كان يقترب حاملاً كيساً من الخبز، ملامح الاستغراب بادية عليه، مزيج من الحزن والحيرة؛

-" ما الأمر يا فيساكا؟"

-"لا شيء لا شيء، فقط هنالك من يود اللعب معنا.."

رد فيساكا، يربت على كتف أدريان بيد قوية.

-"هاي أدريان، لا تلقِ بالا للأمر حسنا؟"

"كما تريد أيها الرسام."

لكن أدريان كان يوزع نظرات الرغبة في المساعدة، هنا وهناك، يشعر بأن هنالك شيئا يجب أن يخلص فيساكا منه.

....

الغرفة كانت باردة كقبر، وبداية انهيار الليل على السماء، جدرانها حجرية مغطاة بستائر حمراء دامية، طاولة طويلة من خشب البلوط محفور عليها خرائط قديمة...

سيف الملك، جلس في الرأس، درعه مفكوكاً جزئياً، ووجهه مثلم كعادته،لا يظهر عليها سوى عيونه الحادة كالصقيع، شعر أسود قصير مليء بالشيب المبكر، أمامه، أعوانه: قادة الجنود، مخبرون، جاسوسان يرتديان أقنعة...

-"لا أعتقد أنني وجدت شخصاً مشتبهاً به حقاً،"

قال سيف الملك بصوت هادئ لكنه يحمل وزن السيف.

-"الاستجوابات كانت روتينية، معظمها أكاذيب، لكن لا دليل قاطع."

بدأ الأعوان يلقون الأسماء، واحد تلو الآخر:

- "التاجر السمين في السوق الشرقي؟"

نفي، يبيع توابلاً فقط، ويخاف من ظله..

-"الصانع الحداد؟"

نفي، إنه يصنع سيوفاً لنا."

- "المرأة العجوز تبيع الأعشاب؟"

"نفي، هل يبدو لكَ من يحمل جثة ويركض كالفهد في المدينة ولا يقبض عليه الجنود، امرأة؟"

حتى وصلوا إلى:

"فيساكا، الرسام في السوق ؟"

سيف الملك أمال رأسه، يتذكر الاستجواب.

-"فيساكا؟ اسمه جميل حقا..

هل لديكم معلومات بأنه غبي لدرجة أنه لا يعد النقود بطريقة صحيحة؟"

رد أحد المخبرين بسرعة:

-"نعم، سيدي، كل التجار والزبائن والمخبرين في ذلك المكان يعلمون هذا، إنه يعطي إرجاعاً زائداً، يخلط بين العملات... غباء تجاري واضح."

سيف الملك ضحك ضحكة قصيرة، باردة...

-"هل تعتقدون أن الإبداع في تلك اللوحات، ولو لم يكن لتلك الدرجة يصدق ما تقولون؟"

رفع لوحة صغيرة اشتراها متنكراً: الطائر الأسود والمفتاح الصدئ.

- "هذا ليس غباء. هذا فنّ، فليجرب أحدكم أنتم الذين تجيدون عد المال أن يرسم واحدة مثل هذه،ما رأيكم أن أرى نتائجكم المبهرة، والذي لا تطابق لوحته هذه اللوحة، سأصنع لوحة فنية بنفسي من أطرافه"

ساد صمت رهيب في القاعة، ثم قال بصوت كأنه الرعد:

-"أريد المزيد من الحراسة عليه، عيون عليه في كل زاوية، إذا كان بريئاً، فليثبت، وإذا كان ذئباً، سنقطع ذيله قبل أن يعض"

الأعوان أومأوا، والاجتماع انفض كدخان.

....

الليل كان أسود كحبر اللوحات، النجوم مخفية خلف غيوم عاصفة قادمة، فيسا كا كان يتّقدُ غضبة، يمشي ذهاباً وإياباً ببطء في الغرفة الضيقة، خطواته تئن على الأرضية الخشبية كأنين شبح...

يده تمسك كأساً فارغاً، يضغط عليه حتى يبيض مفاصله..

ثم جلس، أمام طاولة صغيرة، أشعل شمعة واحدة، وأخرج قلم فحم وورقة،ثم بدأ يكتب، رسوم، وتواريخ، أسماء، يمسح ثم يعيد الكتابة...

ثم وقف فجأة، يحدق في السماء، من النافذة المفتوحة، كانت الريح تهب باردة، تحمل رائحة المطر القادم.

عيناه تعكسان الظلام: الحرب بدأت... لكن من يفوز؟.

عاد إلى مكتبه الصغير، وجلس يكتب مرة أخرى، ويكتب، ويكتب، رموز، ألغاز، وجملة مثل:

إذا لم تنجح، فافعل، إذا لم يكن هكذا، فليكن هكذا.

الساعات تمر..

الشمعة تذوب. ..

والليل، يمر كله، بدون نوم...

فيساكا يدور في دوامة أفكاره، البارانويا تأكل عقله كسم بطيء.

في الصباح، استغرق في النوم أخيراً، ساعات قليلة فقط، رأسه على الطاولة بين الأوراق المبعثرة، بوجهٍ شاحب كورقة بيضاء...

أيقظه أدريان بلطف، يهز كتفه.

كانت ملامح أدريان بادية عليها الاندهاش، الحيرة، والحزن، عيون واسعة، وفم مفتوح قليلاً...

- "فيساكا... يا صديقي، ماذا حدث لك؟ تبدو كأنك حاربت أشباح الليل كله"

فيساكا رفع رأسه ببطء، عيناه حمراء، ابتسم ابتسامة متعبة لكنها شريرة:

-"الأشباح؟ لا... إنها مجرد لوحة فنية أخيرة"

....

السماء كانت رمادية كسيف غير مصقول، والريح تحمل رائحة المطر والتوتر..

بعد أن فيساكا استيقظ متأخراً، بعينين محمرتان من ليلة بلا نوم، جمع أمتعته بسرعة هادئة هو وأدريان، فرشاة، ألوان، لوحة صغيرة، وكيس صغير يحمل أدوات التنكر، وأمور كثيرة أخرى، أدريان كان يساعده، ينظر إليه بقلق صامت، لكنه لم يسأل.

-"أدريان، ماذا تريد أن تحقق في حياتك؟ "

سأل فيساكا أدريان وهما يقصدان السوق:

-"أريد أن أحقق العدالة للفقراء، وكل الناس الذين يتألمون، أريد أن إلى كل شخص مظلوم حقه"

-"ماذا لو كان شخص قُتل ظلما"

-"سأعيش لكي أنتقم له مهما كلفني الثمن"

-"أدريان"

-"نعم، يا فيساكا"

-" هل الانتقام حل فعلا؟ "

-" لن يكون لدي وقت لأفكر هل هو حل أم لا، يا فيساكا، كل ما سأفكر فيه هو بحد ذاته"

-" يا إلهي هل عمرك اثنا عشر سنة فعلا"

يبتسم أدريان ثم يضحك، ويضحك فيساكا أيضا، حتى طال ضحكهما، وبدت عيون فيساكا، تختفي منها كل تلك الملامح المصطنعة شيئا فشيئا، وظهر ما بداخله حقيقة، عيون حزينة، حائرة، كأنها تائهة في صحراء لا تنتهي..

لكن مواصلة أدريان في حديثه جعلته يخفي تلك الملامح.. ويكمل حديثه مع أدريان...

وفيساكا يحمل لوحاته بيديه..

وصلا السوق، وجهزا أغراضهما كالمعتاد..

لكن

-"هاي أدريان، هل يمكنني أن أعتمد عليك؟ "

-"أكيد يا فيساكا، أنا رجل مهماتك أنسيت؟ "

-"لا لم أنس بالتأكيد، اسمع، أريد منك وعدا تقطعه لي"

-"أكيد، ما هو؟ "

-"اعتنِ بنفسك جيدا يا أدريان"

-"، لِ... لماذا؟ ما.. ما الذي تقوله فيساكا؟ "

-" اقطع لي وعدا! "

-"حسنا، سأفعل، سأفعل، لكن، ما معنى كلامك"

-"أريدك أن تذهب الآن إلى إيرلان، بسرعة، وترسل إليه هذه الرسالة"

أدريان يتردد، كأنه يرفض طلبه

-"تركت لك كلاما مهما في المنزل"

أدريان لم يحرك ساكنا، لكن عيونه تحركت لتذرف أول الدموع

-"هيا ! أدريان، هيا! "

أسرع أدريان وهو يلتف خلفه، والدموع في عينيه، يرى فيساكا يلوح إليه بيده مودعا...

وصل أدريان بوجه تملؤه الدموع إلى إيرلان، وأعطاه رسالة صغيرة مطوية، أمسكها إيرلان، وهو لا يفهم شيئا من الذي يحدث، فتح الرسالة، التي كان محتواها قصيرا جدا:

-"اكسر اللوحة! الآن، وبسرعة"

عيناه اتسعتا، وجهه شحب كورقة ميتة، أسرع للغرفة الخلفية، يكسر اللوحة التي أعطاه إياها فيساكا، ليجد رسالة بداخل خشبها!

-" إلى غاية نهاية هذه الفقرة، لا تقرأ بقية الرسالة الآن، وافعل التالي: ... ! "

-"هذا جنون... ما الذي.. لقد فقد عقله تماماً! ما الذي يدور في باله!"

صرخ وهو يجمع ما أمره به فيساكا، لكن خلف قناع العاقل الذي يرتديه، كان هنالك مزيج وطبقات من الصدمات والمشاعر المختلطة...

نادى العجوز فوراً على غارين وتورك، عملاقان من شبكته، عضلاتهما كالجبال، وجهاهما مخيفان لكنهما مخلصان..

أخبرهما بشيء مهم، وبعد لحظات..

اندفع الجميع، العجوز، أدريان، غارين، تورك، نحو السوق.

السوق كان مزدحماً كالعادة، لكن الهواء ثقيل بالتوتر...

كان ثقيلا جدا بحق، فيساكا نظر إلى الغيوم في السماء.

-" آهٍ كم هو منظر جميل! "

قام من مكانه، يمشي بخطوات بطيئة، يبتسم ابتسامة ماكرة كأنها للشيطان نفسه..

-" حسنا أيها الظل، ها أنا أخرج إلى ضوء الشمس، أترى؟ جلدي لا يحترق! لذلك أنصحك، أخرج من سجن الشمعة! "

ثم يقهقه على نفسه مجددا:

-" يا لي من تافه"

لكنه شعور مزيف زال بسرعة، بدأ قلبه يرتجف الآن، المخبرين يتبعونه، يستغربون ما الذي يفعله...

نصب طاولته بسرعة، لكنه لم يجلس، بدلاً من ذلك...

صعد فوق صندوق خشبي قديم،و في وسط السوق، رفع يده عاليا، ثم مد ذراعيه وبسطهما بثقة، ثم صرخ بصوت يهز الأرض:

-"الملك الجبان وأعوانه الحمقى! اليوم سنعلن الحرب على هذا الفاسد!"

توقف الناس فجأة، التجار أسقطوا بضائعهم، الأطفال توقفوا عن اللعب، الجنود في الزوايا رفعوا رؤوسهم بدهشة، فيساكا استمر، صوته يتردد كرعد:

-"إن كانت فيكم ذرة نخوة وشرف، أيها الرجال والنساء، فانهضوا! فانهضوا !

هل تعلمون من أنا؟ أنا الذي جلبت تلك الجثة إلى المدينة، من مغارة يعذّب فيها الناس بغير حق!

هل عرفوا بأمري؟ إن الملك وأعوانه ضعفاء، ضعفاء!

سيهلك قريباً هذا الطاغية! الذهب الذي يسرقه منكم سيصبح سيوفكم! أقاربكم الذين قتلهم سينهضون من قبورهم لينكلوا بجثته! "

اندفع جندي نحو الوسط، يأمر الجنود بأن يرافقوه:

-"اعتقلوا هذا المتمرد! "

لكن الكثير منهم من الصدمة، كأنهم كانوا يريد سماع الخطاب الذي هز كيانهم..

-" ستختق الأرواح أجسادهم وتعذبها! "

سادت لحظة صمت ثقيلة جدا، وفيساكا يحيط السوق كله بعينيه:

-" انهضوا من سباتكم، اتّحادكم سيرعبه، أنتم القوة أيها الناس! "

لكن جنديان،تقدما إليه،يدفعون الجنود جانباً بأكتاف عملاقة، وبأصوات وحوش يقولون لبقية الجنود الذي هموا لاعتقاله:

-"نحن نتولى أمره!"

أمسكا فيساكا من ذراعيه، لكن فيساكا لم يتوقف، يصرخ وهو يُسحب:

-"سيهلك الملك! سيهلك الجبان! إنه أجبن من طفل صغير يختبئ وراء قصره خائفا، وأنتم تخافون منه! وتتركونه يفعل ما يفعل...

أنا عائد... أنا عائد.. أيها الناس الشرفاء! "

صوته مثل الرعد الذي جعل عظام الناس تهتز وجلدهم يقشعر، لكنهم وقفوا مندهشين، بعضهم يهمس، بعضهم يصفق خفية، وأغلبهم يوزع نظرات الحيرة والحزن، كأنهم يريدون تحقيق ما يقول، لكن الجنود بدأوا يصرخون في وجوه الناس، ويفككونهم، بالصراخ، وبالضرب إن لزم...

أبعدَ الجنديان فيساكا..

كان العجوز وأدريان يشاهدان فيساكا وهو يُعتقل، وهو يقول كلامه، كانت صدمة للكل، لكن هذه الكلمة لا تكفي لتعبر ردة فعل أدريان، الذي لم يعرف ما يفعل!....

يمشي الجنديان يجران فيساكا، يمسكان من ذراعيه، لكن جنديا كان يحمل حقيبه معه.. كان الأمر غريبا..

حتى قال فيساكا:

-"الآن، أتركاني.. "

لم يكن الجنديان جنديان حقيقيان، بل كانا غارين، وتورك، حيث أخبرهم العجوز مباشرة بعدما قرأ رسالة فيساكا أن يرتديا زي جنود ويصلا إليه قبل الجنود الحقيقين...

هرب فيساكا مع تلك الحقيبة، وتصنع غارين وتورك رغبتهما في اعتقاله:

-" لقد هرب، اقبضوا عليه! "

انطلق الجنودمن خلفهما يركضون وراءه، لكنهم فقدوا أثره، عبر الأزقة الضيقة، فوق الأسطح المنخفضة، بين الغسيل المعلق، وبين تنكره الصعب والمتلاعب...

واختفى تماماً في ظلال النهار.. كأنه شبح ذاب في المدينة.

الفصل السابع: لعنة مكان قديم

السوق تحول إلى خلية نحل مذعورة، وأصبح الهواء مليء بغبار الأقدام الراكضة، رائحة التوابل المسكوبة، وصوت السيوف تُسحب من أغمادها...

الحراس الحقيقيون أولئك الذين لم يكونوا جزءاً من التمثيلية اندفعوا إلى الوسط، يصرخون بأصوات غاضبة كالكلاب المتوحشة:

-"ارجعوا إلى أعمالكم! لا فوضى هنا!"

صاح قائد الحراس، وجهه أحمر كالدم، يدفع الناس بعصاه.

-"من يتحدث عن الملك يُقطع لسانه!، سترون ما الذي سيفعله به أمامكم! "

لكن الناس لم يتحركوا فوراً، وقفوا متجمدين، عيونهم واسعة كأطفال يرون شبحاً...

خيبة الأمل رسمت بوضوح على وجوههم، تمنيا لو كان ما قاله الرسام البشوش الذي يبيع لوحاته حقيقة...

أن الفساد سيزول، والملك سينتهي حكمه وجنوده..

كل العيون في السوق تعرفه: فيساكا، الشاب الهادئ الذي يرسم جبالاً وطيوراً، يبتسم دائماً، ذلك الذي يعطي خصماً للأطفال، وحلوى..

تفاجأوا جميعاً بحق، النساء، الأطفال، التجار الذين يعرفونه...

والصدمة وصلت حتى إلى الكلب الأجرب الذي ينام قرب طاولته...

-"هل فقد عقله.. يا له من فتى مسكين"

همست امرأة تبيع خبزاً، عيناها مليئتان بالدموع.

-"حتى ولو كان صادقا، الملك يأخذ كل شيء..."

يقول آخر، وآخر

-"كنت أتمنى لو نهضنا" قال تاجر توابل شاب، يمسح يديه المرتجفتين.. "لكن السيوف أقوى من الكلمات."

أما المخبرون، أولئك الظلال الخفية التي يزرعها سيف الملك في كل زاوية، فقد تحركوا بسرعة البرق، كأنهم ثعابين يتحركون بالتواء خبيث..

ثلاثة منهم، يرتدون ثياباً عادية، اندفعوا خارج السوق، ويركضون نحو القصر...

أحدهم كان يمسح عرقه، يهمس للآخر:

-"يجب أن نصل قبل أن يُسلم المتمرد....

سيف الملك ينتظر الاعتقال الرسمي."

في القصر، كان الجميع ينتظرون..

سيف الملك جلس في غرفة الاجتماعات، يدور سيفه بين أصابعه كلاعب شطرنج ينتظر خطوة، الأعوان يقفون صامتين، عيونهم على الباب.

لكن لم يأتِ فيساكا، لا أحد مقيد، لا صوت خطوات ثقيلة.

أخيراً، دخل مرسول جندي، يلهث، وجهه شاحب كالموت.

-"سيدي... هرب! لقد هرب! هرب إلى مكان مجهول،و لا أثر له تحت الشمس!"

اقترب سيف الملك من المرسول، ببرود يجمد الغضب بداخله:

-"ماذا قلت، أعد ما قلتَه، لم أسمع ما قلت"

سكت المرسول، مترددا.. حتى دوّى صوت صفعة على الوجه:

-"قلت أعد ما قلته! "

-"لقد فدق..لقد قفد.. لقد فقدنا أثره يا سيدي.. "

اشتد غضب سيف الملك، والذي وقف فجأة، مبتعدا عن المرسول.. ثم سحب سيفه، ووضعه بحذر على رقبته.. ثم، يعيده إلى غمده

- "ابحثوا عنه تحت كل صخرة! في كل كهف، في كل ظل! إنه مجرد ثعلب سيُقطع ذيله قريبا"

عيناه الرماديتان تلمعان بالغضب والاعجاب المكبوت..

ثم... كأن شعور الصدمة سرى فيه، التفت إلى المخبرين:

-"أخبروني مزيدا من التفاصيل، كيف كان.. ما الذي فعله.. كل شيء"

-" كان ينظر إلى السماء ويتحدث مع نفسه، ويقهقه أحيانا، ثم صعد على صندوق خشبي، ومد ذراعيه واثقا، وبدأ بإلقاء كلامه"

-" مد ذراعيه؟ "

-"نعم"

رفع سيف الملك يده أن اصمتوا لحظة...

ثم أشار بيده لِأن يُكملوا:

-" ثم تقدم جنديان يدفعان بقية الحراس وقالوا أنهم سيتكفلون به"

اتسعت عينا سيف الملك:

-"أعد ما قلت! "

-"تقدم حارسان كانا يركضان إليه غاضبين واعتقلاه.. "

رفع يده ليصمت لحظات، ثم قال:

-"أعد.. "

-"عندما كان يلقي كلامه، تقدم حارسان يدفعان بقية الحراس.. "

-"هنا، قلت أنهم قالوا أنهما سيتكفلان به؟ "

-"نعم"

ضحك سيف الملك عاليا، لعلها كانت أول مرة يسمعه أعوانه يضحك، أو أن الراجح أنها كانت أول مرة يضحك أصلا..

كان حدثا نادرا جدا.. ثم صرخ بحماس:

-" اخْرَف إيرلان، أتذكر أن لديه بذلات حراس أليس كذلك!

أريده الآن أمامي، الآن! أو سأعدمكم جميعا! "

أدريان كان يبكي، جالساً على الأرض الرطبة، دموعه تختلط بالمطر...

-"لقد قبضوا عليه... سيعدمونه علنا،.. يا إلهي!"

يرتجف من الخوف، لكن العجوز إيرلان اقترب ببطء، وضع يده الخشنة على كتف أدريان، يصبره بهدوء الأب.

-"هاي، أيها الفتى،ائتمنك فيساكا على الكثير، سيكون بخير، إنه في مكان آمن، لم يعتقله الجنود، لقد كانا غارين وتورك"

توقف لحظة، عيناه تلمعان بالذكاء.

-"قبل أن يرحل، كان أكثر ما أوصاني عليه هو أنت، وقد قال لي أن نكمل ما كنا نفعل،حسنا؟"

أدريان رفع عينيه المبللتين...

-"لكن... كيف؟ لماذا رحل...! "

العجوز ابتسم ابتسامة خفيفة...

-" أنا لا أعلم ما الذي دار بينكما، لكنه أخبرني أنه يريد أن يحقق حلمك.. "

انفجر أدريان بالبكاء... لكن العجوز قال:

-" هيا، أيها الفتى، انهض، انهض! أعلم أنك واجهت ما هو أقسى من هذا! هيا، ولنفعل ما أمره منا"

ومد يده ليساعده على النهوض:

-"هل ستدع رجلا عجوزا مثلي ينهض وأنت جالس! "

مسح أدريان دموعه، وواصل بيع اللوحات التي رسمها فيساكا...

لكن الجنود بدؤوا بالانتشار في المكان...

-"أدريان، الآن، اجمع أغراضك وعد إلى المنزل، إذا أتى الجنود يفتشون المنزل، لا تفعل شيئا، دعهم يفتشون، ثم سيرحلون، لكن، يجب أن تتخلص من أي شيء "

ضرب أدريان جبهته بكفه كأنه نسي شيء:

-"لقد قال أنه ترك لي شيئا مهما، يا للهول! "

وترك أغراضه وأسرع راكضا إلى المنزل.. والدموع على عينيه مجددا...

العجوز جلس أمام طاولة صغيرة، كأنما كل شيء أرهقه... دخل إلى تلك الغرفة خلف دكانه، وفتح الرسالة التي كان خبأها فيساكا منذ مدة في خشب لوحة غريبة...

تلك اللوحة التي باعها له، شجرة صاعدة للسماء..

وشمس في وسط سماء مليئة بالنجوم؟

-" يا له من فتى..."

رسالة طويلة جداً، بخط صغير جدا، وكيف تقرؤه عينا عجوز، لكن الفتى يعلم أن لديه عدسة مكبرة،أو أنه سيبحث عنها...

-"هذا صعب... صعب جداً..."

همس العجوز، وهو يمسح جبينه، ويكمل محتوى الرسالة، بعد تلك التعليمات الفورية بشأن تنكر غارين وتورك...

لو لم يخبر فيساكا إيرلان بأن يكسر اللوحة.. لما توقع وجودها أبدا..

العجوز إيرلان، الاسم الحقيقي الذي لم يسمعه أحد منذ سنوات، كان ينتظر غارين وتورك بفارغ الصبر...

وهو يقرأ محتوى الرسالة ليتشارك الصدمة معهما..

يمشي ذهاباً وإياباً أمام المدخل، يديه خلف ظهره، و عيناه تراقبان بخيرة...

وصلا أخيراً، يلهثان، عرقهما يبلل دروعهما المزيفة.

-"أين فيساكا؟" سأل إيرلان بسرعة.

-"لقد هرب، واختفى في الأزقة" قال غارين،

-"لكن الجنود يفتشون كل شيء"

إيرلان أومأ، ثم أمر غارين فوراً:

"اجهز للسفر، سترحل بصفتك جندياً يبحث عن فيساكا، خذ هذه.."

أعطاه نفس الخريطة التي وجدها في لوحة فيساكا...

مطوية بعناية، مليئة بالرموز، تشير إلى مكان بعيد في الجبال الشمالي

خرج إيرلان ليتفقد المنطقة، يتظاهر بجمع الأعشاب....

لكن...

من بعيد، رأى شخصاً، مخبر، صديق له من بعيد...

يشير بإصبعين إلى عينيه ثم إليه، إشارة واضحة على أن الأمر انتهى...

بقي إيرلان متجمدا في مكانه، قلبه توقف للحظة، ثم التفت يمينا، وشمالا، واسغرق الاتفات من اليمين إلى الشمال وقتا طويلا جدا..

هواء ثقيل..يسد الأنفاس...

وجالت ذكريات قديمة بين عينيه، المنظر اختلف كثيرا، يوم أن كان جلادا، لم يكن يجرؤ أحد على الاقتراب منه! لكن الأمور تغيرت...

لكنه عاد لوعيه...ثم توقف للحظة، ابتسم، ووضع ما بيده برفق، ثم عاد إليهما..

كان صوته هادئا، ودب في غارين وتورك شعور الاستغراب...

جمع أغراضا أكثر، ببطء، ويحدق في كل عبوة يحملها أو أي شيء يمسكه بيده يشعره بالفخر بما أنجز.. أكياس صغيرة، أعشاب، سكاكين.. وبعض الذهب...

خطا خطوات قليلا إلى جانب آخر، أين توجد طاولة بها أشياء ثقيلة:

-"ساعداني على تغيير مكانها"

استغربا كلامه، أليس من المفترض به أن يسرع في هذا الوقت، ألم يكن متوترا في تلك اللحظة؟

لكنهما فعلا ما قال.. وتفاجآ عندما علما بوجود حفرة دائرة مغطاة بغطاء من حديد مخفي تحت السجاد..

-" خذا هذه الأغراض، واتبعا الخريطة، أعتمد عليكما"

-"ما الأمر أيها العجوز"

-" لا شيء، لا شيء، فقط اذهبا "

بدآ يدخلان إلى الحفرة المؤدية إلى غرفة سفلية، بالنزول من على سلم.. حتى إذا نزلا كلاهما، وقبل أن يغلقها، قال:

-"اعتنيا بنفسيكما جيدا"

استغرب كلاهما كلامه، فهما لم يعهداه بمثل ما سمعا.. لكن كان آخر ما سمعاه:

-"أسرعا"

إيرلان أغلق الباب الأرضي، ثم عاد إلى الغرفة بهدوء،و بدأ ينظف أغراضه ببطء، كأن الزمن توقف...

يمسح عبوات السموم، يرتب الأعشاب، و يلمس كل شيء بيد مرتجفة قليلاً...

يبتسم ابتسامة حزينة، يتذكر وجوه الشباب الذين دربهم، وكل السنين والحكايات التي مرت عليه...

لكنه فعلا، أراد أن يدوم الزمن قليلا، سيكون ترتيب الأغراض والمسح على الأواني التي جمعها، كفيلا بأن يبقيه سعيدا..

كانت عبوة، تحتوي على مستخلص أزهار جميلة، زهرة رسمت عليها بريشة طيبة.. آخر ما وضعه على تلك الطاولة بعدما أخفى الباب...

ثم سحب كرسيا إلى وسط الغرفة، كرسي قديم، بمثل قدم العادة التي لا تفارقه، يدخن غليونه، يضع رجلا على رجل، ينتظر وصول الجنود.

الليل يغلف الجبال الشمالية بستار أسود كثيف، مخملي، يتخلله بريق النجوم كألماس مبعثر على لوحة فيساكا المفقودة...

القمر يلقي ضوءاً فضياً بارداً يحول الصخور إلى أشباح صامتة، والأشجار إلى حراس يهمسون أسراراً قديمة.

الريح تهب خفيفة الآن، تحمل رائحة الصنوبر الرطب، الثلج البعيد، والتراب المبلل بعد عاصفة، كأن الأرض نفسها تتنفس بعد يوم طويل من الغضب.

غارين وتورك يسيران في الظلام، أقدامهما تترك آثاراً خفيفة في الطين الرطب، دروعهما المزيفة تثقل كاهليهما بعد رحلة مرهقة استمرت ساعات، الخريطة المطوية في حقيبة يحملها غارين، مليئة برموز فيساكا الدقيقة ...

عرقهما يبرد تحت النسيم، عضلاتهما تؤلمهما من التسلق عبر الصخور الحادة، والحفرة السفلية التي هربا منها لا تزال تطارد أذهانهما ككابوس....

لم يعلما بوجودها رغم تلك الثقة التي كانت بينهما وبين العجوز، تورك يمسح جبينه بكم قميصه الممزق، يهمس لنفسه:

- "إذا كان العجوز قد وقع، فكل هذا عبث."

غارين، الأكثر صمتاً، يمسك الخريطة بإحكام، عيناه تتلمس الطريق تحت ضوء القمر، يتذكر كلمات إيرلان الأخيرة:

-"اعتنيا بنفسيكما جيدا"

كانت وداعاً، ليس أمراً.

الطريق يضيق تدريجياً، يؤدي إلى وادٍ مخفي بين جبلين عملاقين، حيث يقع ما يشبه كوخا،..

النجوم تعكس نفسها في بركة ماء صغيرة قرب الباب، كانت جزءا من السماء سقط على الأرض.

رائحة الخشب المحترق تملأ الهواء، مختلطة برائحة عشب جاف وشاي أعشاب يغلي داخلاً.

غارين يدفع الباب الخشبي ببطء، المفصلات تصرخ احتجاجاً كأنها تحذر من الدخول، داخل الكوخ، الدفء يضرب وجهيهما كعناق مفاجئ بعد البرد القارس...

النار في المدفأة تتراقص بحيوية، ترمي ظلالاً طويلة على ما هو مكتوب على الخشب الذي يشكل الجدران...

فيساكا جالس على كرسي قديم قرب النار، ظهره منحنٍ، عيناه مثبتتان على اللهب كأنه يبحث عن إجابات في لهيبه... وجهه شاحب، محاط بظلال سوداء تحت عينيه من قلة النوم، شعره الأشعث يلتصق بجبينه بالعرق...

يرتدي قميصاً بسيطاً، يداه ترتجفان قليلاً حول كأس ماء فارغ...

عندما يدخلان، يرفع رأسه ببطء، عيناه تلمعان بمزيج من الإرهاق والأمل المكبوت.

صوته يخرج جافاً، مكسوراً، كأن الحنجرة جافة من الصمت الطويل:

-"أعندكم ماء؟"

غارين يسارع إلى قربة الماء المعلقة على حزامه، يملأ الكأس بيد مرتجفة، ثم يمدّها إليه..

فيساكا يشرب بنهم، قطرات الماء تسيل على ذقنه كدموع غير مرئية، ثم يسعل قليلاً، يمسح فمه بكم قميصه.

ثم يرفع عينيه، ينظر إليهما كأنه يراهما لأول مرة، يبتلع ريقه، ثم...

-"انتظرا، انتظرا.. لماذا أرسل كليكما؟ "

قالت عيونهما شيئا، جعل فيساكا يتجمد، وسقط ذلك الكأس من يده يهتز قليلاً...

صوت يشبه لكمة قوية على الوجه، عيناه تتسعان تدريجياً، كأن الدماغ يعيد تركيب الصورة ببطء مؤلم.... .

الكأس يتحطم، شظاياه تتناثر كنجوم سقطت من السماء خارجاً، تعكس ضوء النار في بريق دامي...

عيناه تتسعان إلى أقصى حد، مليئتان بالرعب والذنب الذي يغلي كَسُم، ثم يمسك رأسه بيديه كأنه يمنعه من الانفجار:

-"لا، لالا لا... لا تقولانها، لا!

لَمَ لم تهرب أيها العجوز الأخرق!! لماا!!!!! "

يصرخ بصوت يهز جدران الكوخ، يركل الكرسي بعيداً، يمسك رأسه بيديه كأنه يحاول سحق الذكريات، دموعه تسيل أخيراً، حارة، مالحة، تختلط بالعرق على وجهه...

غارين يتقدم، يحاول الإمساك به:

-"فيساكا، اهدأ! هو اختار ذلك!"

لكن فيساكا يدفعه بعيداً، صوته مكسور، يصرخ مرة أخرى:

-"أنا من جعلتهُ يفعل.. "

يحدق في اللهب كأنه يرى وجه إيرلان يبتسم منه، الغليون في فمه، وتلك العيون الذكية...

استمر الليل، والريح تعوي خارجاً، وكأن صوت قلبه يُسمع من الخارج...

الفصل الثامن:شجاعة محارب

الفجر يتسلل إلى الزنزانة من خلال نافذة صغيرة عالية، مشبكة بحديد صدئ يشبه أنياب وحش قديم، يلقي ضوءاً باهتاً رمادياً يمزج بين الظلام والدماء الجافة على الجدران...

الهواء ثقيل، مشبع برائحة الرطوبة، العفن، الدم القديم، والعرق المالح الذي يلتصق بالجلد كلعنة.

على عكس وقت الفجر الذي تعود عليه العجوز دوما، هواء منعش خفيف، لكن هذا المكان! كابوس عن الجحيم...

الأرضية حجرية باردة، ملطخة ببقع سوداء من تعذيب سابق، وسلاسل حديدية تتدلى من السقف كأفاعي معلقة تنتظر فريستها...

صوت قطرات الماء تسيل من شق في الحائط، تتردد كساعة موت بطيئة، تقطع الصمت المرعب.

إيرلان جالس على كرسي خشبي قديم، مكبل اليدين والقدمين بسلاسل ثقيلة تُصدر صوتاً معدنياً خفيفاً مع كل حركة صغيرة...

جسده المنهك يبدو أصغر تحت السلاسل، مجرد من ثيابه، كانت سترته الوحيدة هي تلك السلاسل الكثيرة عليه...

لكن لمعان عينيه الذكيتان تلمعان بشجاعة لا تُطفأ، كنجمتين في سماء عاصفة...

غليونه مفقود، فمه جاف، لكن ابتسامته الخفيفة لا تزال تُلمع كتحدٍ صامت...

وأصابعه تلامس السلاسل ببرود، كأنه يتذكر أياماً أقدم حين كان هو الجلاد لا الضحية...

الباب الحديدي يُفتح بصرير مدوٍّ يشبه عواء ذئب، يدخل سيف الملك في مظهر مخيف يجمد الدم في العروق: درعه الأسود اللامع يعكس ضوء الفجر كمرآة سوداء، سيفه معلق على جانبه يتدلى كذيل أفعى، وجهه شاحب كالموت لكنه مليء بغضب مكبوت يجعل عروقه تنتفخ على جبينه... خلفه جنديان عملاقان، وجوههما مغطاة بأقنعة حديدية، يحملان رماحاً حادة، أقدامهما تدوي على الأرض كطبول حرب...

الجلاد يقف في الزاوية، رجل عريض الكتفين بأيدٍ كالمطارق، يمسك كماشة حديدية تلمع ببريق دامي تحت الضوء الخافت.

سيف الملك يتقدم ببطء، بخطواته المدروسة ، يتوقف أمام إيرلان، عيناه الرماديتان تحدقان فيه كصقر ينظر إلى فريسة. صوته يخرج بارداً، حاداً كشفرة:

"أين هو؟ أين هو؟"

إيرلان يرفع رأسه ببطء، عيناه تواجهان عيني سيف الملك دون وميض خوف، ابتسامته تتسع قليلاً كأنها سخرية قديمة. صوته أجش لكنه قوي، يتردد في الزنزانة كصدى شجاعة:

-"أين ماذا؟ الريح؟ النجوم؟ أم ذلك الطفل الذي سيُسقط عرشكم كله؟"

سيف الملك يخرس للحظة، غضبه يغلي، ثم يرفع يده بسرعة ويصفع إيرلان بكف قوي يُصدر صوتاً يتردد كسياط، يترك علامة حمراء على خده العجوز...

دم خفيف يسيل من شفته، لكن إيرلان لا يئن، يضحك ضحكة خفيفة مكتومة، يمسح الدم بلسانه...

سيف الملك يشير إلى الجلاد بإصبع مرتجف من الغضب:

-"اقتلع أظافره... ظفراً ظفراً."

الجلاد يتقدم، كماشته الباردة تلامس إصبع إيرلان الأول، ثم..

يسحب بقوة. صوت اقتلاع الظفر يشبه كسر عظمة جافة، دم حار يسيل على أصابعه، يقطر على الأرضية كدموع حمراء...

إيرلان يعض على شفته، جسده يرتجف للحظة، لكنه لا يصرخ، يحمر وجهه حول عينيه، وهما مثبتتان على سيف الملك كتحدٍ.

سيف الملك يتكئ إلى الأمام، وجهه قريب جداً، يهمس بغضب:

-"أين هو أيها الخائن؟"

إيرلان يرفع رأسه رغم الألم الذي يجعل عرقه يسيل كأنه في حمى، صوته ثابت رغم الدم الذي يملأ فمه:

-"إنه مجرد طفل...مجرد طفل سيسقطكم كلكم. أنتم، كلاب الكلب الأكبر، ستُدفنون تحت قدميه."

الجلاد يكمل، ظفر ثانٍ، ثالث، الدم يغرق يدي إيرلان، يسيل على السلاسل كأنه نهر صغير من الشرف...

الألم يجعل رؤيته تتلاشى للحظات، لكنه يبقي ابتسامته، يتذكر وجه فيساكا الشاب، وذكريات جالت في باله عن الزمن البعيد..

سيف الملك يقف مستقيماً، عيناه تلمعان بمزيج من الغضب ، يمسح يده كأنه يمسح دماً غير مرئي:

-"هيا أيها العجوز، هل تريد ماءً؟ هل الفتى الذي هرب وتركك يستحق حياتك!

لم أكن أعرف أنك غبي لدرجة أنك تريد قضاء بقية أيامك معاقباً هكذا...أخبرني، أين هو؟"

يشير العجوز إلى سيف الملك أن يقترب ليسمع كلامه...

وعندما قرّب وجهه إليه، بصق العجوز ما في فمه من الدم في وجه سيف الملك الذي صفعه فأفقده وعيه...

اقترب الجنديان من خلفه لكن أشار إليهما بالتوقف، مسح وجهه بطرف لباسه، ثم قال:

-" كما تشاء أيها العجوز المهترئ، أنتَ الآن مجرد قمامة خسرت كل شيء"

يغادر سيف الملك الزنزانة بخطوات ثقيلة، الباب يُغلق خلفه بصوت مدوٍّ يهز الجدران، يأمر الجلاد من خارجاً:

-"اجلده... حتى يتوسل، أو يموت.

الجلاد يرفع سوطه الجلدي الثقيل، ملطخاً بدماء سابقة، يبدأ الضربات صوت السياط يتردد كرعد في الزنزانة، لحم إيرلان يتمزق، الدم يرش على الجدران كلوحة حمراء. إيرلان يعض على أسنانه، يواصل كتم صراخه لا يصرخ، يهمس لنفسه بين الضربات:

-"الطفل... سيأتي... الظلال تنمو..." الدم يغطي جسده، لكن عيناه تبقيان مفتوحتين، تراقبان النافذة حيث يبدأ الصباح في التلون بدماء جديدة...

لكنه عندما علم أن سيف الملك ابتعد.. لم يستطع مقاومة كتم الصراخ من الألم...

الزنزانة تصبح مسرحاً للشرف، حيث يتحول الألم إلى وقود للثأر، والعجوز إلى رمز لا ينكسر...

تُعزف موسيقى حزينة في الريح، ليست من آلة، بل من أوتار الروح الممزقة: عواء الذئاب في الجبال، قطرات المطر على أسطح المنازل، و صوت السياط في الزنزانة.

ثلاثة أماكن، ثلاثة أرواح، متصلة بخيط رفيع من الأمل والألم، يدور المشهد بينها كلوحة فيساكا المبعثرة...

....

أدريان...

الليل يغطي المنزل الصغير بستار أسود، النوافذ مظلمة، الجدران باردة كقبر...

لكن منظرا جميلا تشكل الآن، فيساكا جالس يرسم تحت ضوء الشمعة، يخط الخطوط ويبتسم ابتسامة مشرقة، أدريان والذي كان يضع خده على فراشه كي ينام،اتسعت عيناه من هذه المفاجأة...

-"فيساكا"..

-" أهلا أدريان، لقد عدت، أنا بخير كما ترى، لا تقلق علي أبدا"

.... بابتسامة معروفة تنير كأنها شمس الصباح، اقترب أدريان والدموع تسيل من عينه...

لكنه عندما وصل لم يجد شيئا...

أمسك بذلك الشمعدان..

-"فيساكا... هل أنت بخير يا أخي... "

في أعلى الجبل، كهف صغير مخفي خلف شلال متجمد، الماء يسيل قطرة قطرة كدموع الزمن...

فيساكا جالس على صخرة باردة، النار الصغيرة أمامه تتراقص بضعف، ترمي ظلالاً طويلة على جدران الكهف الرطبة. يحمل سكيناً صغيرة، ينحت بها قطعة خشب، وجه إيرلان، العيون الذكية، الابتسامة الحزينة.

كم من الألم الذي تعرض له في حياته؟ مقتل والديه، خيبة من رباه ليبيعه، فراق من أنقذه...

يضع السكين جانباً، ثم.. يمسك رأسه بيديه...

إيرلان

الزنزانة الآن مظلمة تماماً، الشمعة انطفأت، الدماء الجافة تلتصق بالأرض كلوحة سوداء...

العجوز مكبل، جسده مليء بالجروح، السياط تركت خطوطاً حمراء عميقة على ظهره، لكن عيناه لا تزالان مفتوحتين...

الجلاد يضربه باستمرار، صوت السياط يتردد كرعد، لكن إيرلان لا يصرخ، ويهمس بكلام غير مفهوم، ويتذكر ابنه الذي يشبه هذا الفتى إلى حد ما...

كان منظر الابتسامة تحت ذلك التعذيب ... منظرا ساحرا، كأنه من الخيال، بقدر ما هو مؤلم ليحدث نزيفا في القلب...

....

الفجر يبدأ في التسلل من كل الفتحات، فيساكا يقف أمام غارين وتورك، وجهه شاحب لكنه حازم...

-"لنغير مكاننا"

تورك يرفع حاجبه، يمسح عرقه:

-"إلى أين؟"

-"ستعودان إلى السوق، وستقومان بما أخبركما به حرفيا، أنتما لستما مطالبان،واختفاؤكما لفترة أطول سيعكس الأمر عليكما، سنفترق، أنا أعرف مكاناً، لكنه سيبقى مكاناً خطيرا جدا... لكنني سأتولى الأمر بنفسي، وسأبقى هارباً في الظلال، وأنا...

أخطط لمهمة لا يستطيع أن يقوم بها أحد غيري...

أما أنتما، فكل ما تحتاجانه، قد أخبرتكما إياه، باستثناء.."

غارين يقاطعه، عيناه حادتين:

-"ماذا؟"

فيساكا يخرج ورقة صغيرة مطوية، عليها رسم دقيق لحارس، وموقع فوق الجبل:

-"هل يمكنكما أن تقبضا على حارس هذه المنطقة؟ مقر حراسته في أعلى الجبل هناك. أريد منكما أن تتنكرا بزيكما، وتستخرجا منه أي تحديث جديد يُكشف به زيف الجنود."

تورك يبتسم ابتسامة إعجاب، يمسك الورقة:

-"نعم، أنتَ محق، لا تقلق، اعتمد علينا..."

فيساكا ينظر إليهما بعينين مليئتين بالشك، صوته يرتجف قليلاً:

-"تعرضت لخيبات أمل كثيرة، ولا أريد أن أتعرض منكما كذلك."

غارين يضع يده على صدره، صوته عميق:

-"لديك كلماتنا."

فيساكا يومئ ببطء، ينظر إلى ركن في الكوخ، حيث يبدأ الضوء في الازدياد:

-"حسناً، لنفترق، ولندعو أن يخبرهم العجوز بمكاننا كي لا يستمر تعذيبه."

تورك يرفع يده، يسأل سؤالاً أخيراً:

-"سؤال أخير، فيساكا."

-"ماذا؟"

-"قلت أنه لدينا ثلاثة أسابيع، أليس كذلك؟"

فيساكا يبتسم ابتسامة حزينة..

-"صحيح. يوم الأحد الذي يوافق ذلك..."

يصمت لحظة، ثم يصرخ:

-"هيا إذن!"

يخرج الثلاثة من الكوخ، كل في اتجاه....

لكن فيساكا بقي قليلا، ينظر إلى الكوخ الذي يبدو كأنه حطام لا يقي بردا ولا حرا... بقي ينظر، وينظر...

حتى أن تورك وغارين توقفا ينظران إلى خلفهما في انتظاره أن يبدأ خطوته...

حتى فعل...

خطا أول خطرة.. ثم.. اختفى... في الضباب نحو الجبال...

لم يعلما، أن هذا الكوخ، أوى فيساكا بين الوحوش، ويبقي فيه أربع سنوات طفولته...

هنا، حيث، تلقى صفعة الخيانة، بعد ذكرى أشد ألما..

مقتل والديه...

بدأ رجلا المهمات بالتسلق نحو قمة الحارس...

الريح تعوي، وكأنها تبدأ العد التنازلي للأسابيع الثلاثة.

وصل فيساكا إلى نقطة ارتياح مؤقتة في كهف صغير على حافة الغابة الشمالية، حيث يلتقي الجبل بالسهل.

الريح تهب باردة، تحمل رائحة الملح من البحر البعيد، مختلطة برائحة الصنوبر والتراب الرطب... فيساكا المتعب، يجلس على صخرة ليأخذ نفسا، وشربة ماء، ثم ينظر، يمينا وشمالا، من الأمام، والخلف، يمسح المكان، يبدو وكأن لا أحد يراقبه، لكنه كان يتنقل بطريقة غريبة جدا جدا..

كان يتسلق شجرة، ويختبئ داخل أوراقها مدة من الزمن، كان يمضي وقته في الكآبة، ثم ينزل، ويتسلق شجرة أخرى باتجاهات عشوائية، طوال يوم وليلة...

لكن لم يتبقَ معه إلا القليل من الماء....

عندما وصل إلى هذا المكان الآن، لم يعد يتسلق مجددا، ثم همّ بفتح حقيبته الصغيرة، يخرج بدلة حارس ثالثة...

-"كأن الرجل العجوز كان ينتظر شخصا ثالثا بعد رجلاه... "

ثم قال:

-"سأكون ذلك الرجل"

مخبأة في أماكن سرية لأيام كهذه، الدروع الجلدية السوداء القابلة للطي..

الخوذة التي تبدو وكأنها معدنية، لكنها مجرد تمويه، الوشاح الأحمر الذي يدل على الولاء المزيف....

يرتديها ببطء، يشعر بثقلها على كتفيه كذنب إضافي...

ينزل إلى المدينة من الجهة الشمالية، حيث يقترب القصر من البحر، الميناء قريب لكن ليس قريباً جداً، مسافة كبيرة نوعاً ما، بطريق ترابي مليء بالحفر، محاط بأشجار الصنوبر والحقول المهملة.

الشمس تحرق ظهره، وتنهك ما تبقى من قوته.

أخيرا، يدخل سوقاً صغيرة على الحافة، حيث أسرع إلى بائعي الأكل كيفما كان...

-" يا إلهي.. انظر إلى حالك كيف تبدو"

-"أنا بخير، أنا بخير، شكرا... أعطني بعض الماء والطعام رجاء.. "

-"تفضل، تفضل، خذ..!"

-"شكرا.."

جلس على مائدة، يتناول ما قدمه له البائع، والذي بدأ في مدح الملك وجنوده، كأنه يريد شراء ولاء الحراس أو يريدهم أن يتصدقوا عليه ببعض الدراهم...

وهو يلقي بكلامه، نهض فيساكا والذي ضرب طاولة بيعه بعملات أصدر صوتا أسكته...

ثم حمل حقيبته وغادر...

توجه إلى بائع آخر بعدما اختفى عن أنظار الأول...

واشترى أدوات تنكر بسيطة، لم يكن أحد يتوقع أنها ستستعمل للتنكر، نخم طري، ونباتات معينة، ومقص حاد من الحديد....

في مكان لا يُرى فيه، عدل حاجبيه بمقص صغير،وأضاف إليهما تعديلا بالفحم على مرآة متشققة...

يغير شكل أشفاره بعناية...

وأخيرا، حلق تلك اللحية الخفيفة وشاربه كذلك، وهو ينظر في بركة ماء صغيرة...

يرى وجهاً غريباً...

عندما حل الليل، توارى خلف أشجار كثيفة على حافة الطريق، نزع ثياب الحارس بعناية، طواها في الحقيبة، ثم ارتدى ثياباً عاديةاشتراها واشترى بعض الطعام، خبز جاف، وقطعة جبن صغيرة، يأكلها ببطء...

هاهو فيساكا، يبيت في الخارج حيث البرد يعض الجلد كأنياب، يلتحف الرداء الرقيق، ثم نظر إلى حقيبته، كأنه يأبى أن يفتح رداءه ليدخلها تحت الرداء،من شدة البرد.. كانت رؤية فيساكا نائما في ذلك المكان هادئة من الخارج، رغم أنها في جو بارد، لكنه كانت مناظر دافئة..

لكن في عالمه، وفي أحلامه، لا يرى إلا أدريان، وحيرته، وإيرلان... العجوز الذي ضحى بنفسه... ليغطي على رجُلَيه...

في الصباح، أيقظه جنديان بضربات على كتفه بعصا خشبية:

-"انقلع من هنا، أيها المتشرد!"

نهض فيساكا بصمت، يمسح التراب عن وجهه، و يغادر دون كلمة...

يمشي ويمشي ويمشي وسط الناس المزدحمة في الطريق الرئيسي، فلاحون يحملون سلالاً، تجارٌ على عربات، أطفال يركضون.... والشمس مرتفعة في وسط السماء..

الحرارة تزداد... وتزيد من نزيف قدميه داخل ذلك الحذاء البالي.

ثم سأل حارساً واقفاً عند تقاطع:

-"هل ما زال الميناء بعيداً؟"

الحارس ينظر إليه باحتقار، يبصق على الأرض:

-"نعم أيها الحثالة، ما زال ينقصك عدة سنوات لتصل إليه ماشياً! استأجر عربة أيها القذر!"

لكن فيساكا ظل يمشي، يمشي ويمشي...

أحياناً يسقط على ركبتيه من الإرهاق، الغبار يلتصق بجبينه، ثم ينهض بصعوبة، وهو يمسك عصا صغيرة كعكاز، إنه يدري أن عليه استئجار عربة، أيها الحارس الغبي!

لكن ليس لديه ما يكفي،وما تبقى معه من ذهب لا يكفي لعربة...

الطريق يطول كلعنة، والشمس تغرب تدريجياً، والنجوم...

توقف قليلا، تذكر بتلك اللوحة، نجوم في سماء نيلية، والشمس كأنها ثمرة لشجرة طويلة...

كانت تلك اللوحة، أجمل، وأفضغ هدية قدمها للعجوز، وأنها، هي الهدية الوحيدة له...

برزت النجوم، واصل فيساكا المشي حتى وصل إلى الميناء في نهاية اليوم، رائحة الملح القوية، و صوت الأمواج تتحطم على الصخور،و السفن، تمايل كأشباح في الضباب. لكنه متعب، جسده يئن، ووجب أن ينام.

يجلس خلف صناديق في زاوية مظلمة، مرتديا تلك القبعة النهترئة التي تغطي أغلب وجهه، ويفكر في كلهم، كل لحظة...

الذنب يعصف به كعاصفة، لكنه يغفو أخيراً، على صوت البحر الذي يهمس بأسرارٍ من ائتمنوه عليها.

الليل يغلف القصر بستار من الظلام الدامس، والريح تعوي خارجاً كأرواح الضحايا السابقين، تحمل رائحة الدم والحديد عبر الشقوق...

داخل الزنزانة، الصمت ثقيل كالرصاص، مقطوع فقط بصوت قطرات الدم تسيل ببطء من جسد إيرلان، تتجمع في بركة صغيرة على الأرض الحجرية الباردة، وتعكس ضوء شمعة وحيدة تذوب بسرعة من وحدتها، أم من رؤية ما رأت...ولهيبها يتراقص كروح تكافح قبل الموت، من هواءٍ مشبع برائحة اللحم الممزق، العرق، والموت الزاحف.

الباب الحديدي يُفتح بصرير مدوٍّ يشبه صرخة الجحيم، يدخل سيف الملك، بعد يوم كامل من التعذيب، حاملا درعه الأسود الذي يلمع ببريق بارد تحت ضوء الشمعة، وجهه شاحب كشبح، عيناه الرماديتان مليئتان بغضب وفضول لمعرفة أين يوجد الطفل.

خلفه أعوانه، أربعة جنود عملاقين، ضاعف العدد هذه المرة، وكل وجوههم مغطاة بأقنعة، أيديهم على مقابض سيوفهم، أقدامهم تدوي على الأرض كطبول إعدام...

دخل الجلاد إلى الزنزانة، واجتمعوا كلهم على رجل عجوز واحد، كأنهم لا يستطيعون مجابهته رجلا لرجل...

سيف الملك يتقدم ببطء، خطواته مدروسة كصياد يقترب من فريسة ميتة، يتوقف أمام الكرسي....

لكن الشمعة انطفأت، ما جعلت سيف الملك يواصل تقدمه، وخطواته، حتى خطا على بركة الدماء تتطاير قطرات منها..

على جسد عجوز، شجاع، لا أحد من هؤلاء الفتية والصبيان يعلم ما مر به، وما الذي مر عليه، لكنه يعلم أن ما حارب لأجله، سيتحقق...

تقدم سيف الملك، ليجد العجوز رافعا رأسه، مائلا إلى الخلف، عيناه مفتوحتان نحو السقف كأنه ينظر إلى السماء التي لم يرها منذ أيام، و فمه مفتوح قليلاً في ابتسامة أخيرة جامدة.. بشفتان متشققتان من الدم الجاف..

انحنى سيف الملك، والتمس رقبته بإصبعين ليرى نبضا قد اختفى، وتناثر صوته مع الرياح، التي ستهدم قِلاع الظلم.

ثم غطا عينيه بيده..

الفصل التاسع: الذئب الأسود

ضوء شمس الفجر تتسلل إلى أحياء وشوارع ليريان، ينزلق بين الضباب الكثيف الذي يلف المدينة، جبالّ بعيدة تمتد على الأفق، إنها تبدو مثل حراس عمالقة يحرسونها، من بعيد، وعلى الجهة المعاكسة، يقف القصر الملكي شامخا، بأبراجه الحادة كأنها رماح أو سيوف تطعن السحاب، بأعلام حمراء تدل الحرية والعدل والهدوء الذي يميز هذه المدينة، تحت سلطة ملك لا يُظلم عنده أحد...

تحت تلك الجبال، تنزل المدينة في طبقات متعرجة كثيرة، وتضاريس وعرة تميزها مرتفعات ومنخفضات عديدة..

في الأعلى، حيث يقترب الهواء من القصر، الشوارع مرصوفة بحجر أبيض نادر، مستورد من جزر الجنوب البعيدة، يلمع حتى في الظلام...

الحدائق المعلقة تتدلى من الشرفات، أشجار الياسمين والليمون تملأ الهواء برائحة حلوة تخفي رائحة الخوف الذي يتسرب من كل نافذة...

النوافذ مزينة بزجاج ملون، مشاهد من مجد الملك، لكن الزجاج نفسه هش، يتكسر بسهولة إذا رُمي بحجر من متمرد، لا غرابة في بقائه مدة طويلة دون أن يُرمم، فمتى ما ظهر متمرد، يُعدم..

السكان هنا، النبلاء، يرتدون الحرير والمخمل، لكن عيونهم فارغة...

يتحدثون بصوت منخفض، خشية أن يسمعهم من لا يستحق ذلك، و يتبادلون الابتسامات المزيفة في الحفلات، يرفعون كؤوس النبيذ للملك، لكن كل بيت له باب خلفي سري، ممر ضيق يؤدي إلى الأزقة السفلى للهروب إذا جاءت الاعتقالات...

الحراس هنا يرتدون دروعًا فضية لامعة، سيوفهم مزينة، لكن خطواتهم ثقيلة، كأنهم يحملون أوزار المدينة...

في قلب ليريان، السوق الكبير، متاهة من الأزقة الضيقة التي تفوح منها رائحة التوابل، الجلود المدبوغة، والدم الطازج من الجزارين، بعض الشوارع هنا غير مرصوفة،لكن أغلبها بني بهندسة معمارية عبقرية..

الأسواق مقسمة في هذه المدينة، سوق للتوابل حيث أكياس القرفة والزعفران تُرص كجبال صغيرة، لكن أغلب التجار يغشون رغم العِبر الكثيرة التي رسمها لهم الملك..لكنهم مازالوا يخلطون التوابل الحقيقية بمساحيق لا تُميّز ولا تُعرف، الرائحة حارة، تخنق، لكنها رائحة جميلة للزائرين..

توجد أيضا سوق للحدادين، حيث يعلو صوت المطارق الذي يتردد كدقات قلب مريض، يصنعون سيوفًا وسكاكين ورماح وأدوات كثيرة جدا، كان تلك التصميمات ذكية بالفعل... وسوق الفاكهة، حيث تباع أنواع شهية من مختلف أنواع الفاكهة والخضراوات، أنواع خبز المختلفة وكل ما يُؤكل، الأشياء الخضراء والملونة تجعل هذا السوق مكانا جميلا لتباع فيه لوحات ملونة، للأطفال، والنساء، وغامضة، تصنع الرغبة في البحث عن الجواب، عند كل أصناف الناس.

في الأحياء السفلى، حيث يلتقي الجبل بالنهر، الشوارع طينية، بيوت من الخشب والقش، والحجارة، أسقفها تتسرب منها المياه في الشتاء، والقليل منها يصمد أمام العواصف....

الحراس نادرون هنا، لأن الجريمة هنا جزء من النظام. فكل أسبوع تقريبا، يُعثر على جثة في النهر، وجهها مشوه بالسكاكين، ولا أحد يسأل...

في أقصى الشمال، حيث يلتقي الجبل بالبحر، الميناء مزدحم بالسفن، أشباحٌ تعوي أشرعتها الممزقة مع الرياح، وتحمل بضائع من العالم الخارجي،

جزر أكرايا، حيث تستود منها توابل حقيقية نادرة، عبيد بأغلال ذهبية، و أحجار كريمة تُستخدم لتمويل الجيش...

أما من الشرق والغرب، فأنواع مختلفة من القماش، وأجود أنواع الخشب، حديد خام، وحتى، الكتب المتنوعة، التي لم تكن متاحة بالطبع إلا للنبلاء والأثرياء، كتب تروي الكثير عن أسرار محجوبة في تلك الغابات الكثيرة التي تميز المدينة، ذات الأشجار الكثيفة، والعملاقة...

يجلس العجوز داغون على كرسيه الخشبي المتهالك، ذلك الكرسي الذي صنعه بنفسه قبل سنين لا يعلمها أحد غيره من الناس، من خشب شجرة صنوبر قطعها في الغابة الشمالية، والذي صار الآن يئن تحت ثقله كأنه يحمل ذنوب العالم...

في فناء مفتوح، لبيت في أطراف الأحياء السفلى، حيث يبدأ الطين وتنتهي المدينة، بيته كوخ صغير من طين جاف متشقق، جدرانه تميل قليلاً كأنها ستسقط في أي لحظة، وسقفه من القش الرطب الذي يتسرب منه الماء في كل عاصفة، لم تكن الغرفة ضيقة ولا واسعة..

لكن الضيق في روحه كان لا يُطاق..

كان منظرا جميلا أن يرى الأحياء الملكية عبر الضباب، رغم أن الكثير قد تغير منذ تلك السنين، لكن تلك الأبراج الشاهقة للقصر مازالت تطل كأنياب عملاقة.

عيناه، الغائرتان في محجريهما، محاطتان بتجاعيد عميقة كأخاديد الجبال، تريان شيئا غريبا في السماء، إنها ليست بخير أبدا..

نادى بصوت أجش، مكسور، كأنه يخرج من قبر:

-"ميرا... ميرا، أدخليني ."

خرجت ميرا صاحبة الخمسين عاماً، تبدو أكبر من سنها، وتلك التجاعيد على وجهها تحكي عن معاناة كل من يسكن هاته الأحياء..

بجسد نحيل، عظام كتفيها بارزة تحت ثوب رمادي ممزق، شعرها الأبيض مربوط بقطعة قماش بالية، كانت عشر سنوات من تلك الخمسين، في خدمة داغون، لكن ومن يسمع كلامها حين تقول في نفسها أنها هي أيضا ، تحتاج لمن يخدمها...

ورغم ذلك، فهي لا تعرف اسمه الحقيقي...

وضعت صينية خشبية متصدعة، عليها كوب ماء عكر وخبز جاف أسود .

-"سيدي، هل تريد الدخول؟ "

داغون لم ينظر إليها، ولم يجب، كانت عيناه مثبتتان على القصر. ثم، فجأة، انفجر...

لم يكن صوتاً، بل انهيار. يداه ترتجفان، دموعه تسيل بصمت على خديه المتجعدين، يمسح وجهه بكف خشنة كالصخر، لكن الدموع لا تتوقف.

-"أين هو؟ أين هو؟" صوته يرتجف، يتكسر، و يعود إلى الطفولة التي لم يعشها.

ميرا اقتربت. لم تتكلم فوراً. وضعت يدها على كتفه، يد خشنة لكن دافئة، كأنها تحمل آخر ذرة حنان في المدينة...

-"سيدي، كل شيء على ما يرام، سيكون بخير أعدك." صوتها هادئ، لكنه يحمل حزنًا عميقاً...

داغون لم يرد، بكى بصمت، كتفاه تهتزان،و رأسه ينحني...

لم تدرِ ميرا، وهي تنظر إلى هذا العجوز الذي يبكي كطفل صغير ضائع، أن هذا الرجل قتل آلاف الرجال بسيفه في المعارك الطاحنة، لم تدر أن بداخل هذا الرجل حكايات، وأن اسمه كان يرعب قرى بأكمها...

AVA

الفصل العاشر:دهاء الحروب

الريح الشرقية تهب قوية من جبال الشرق، وتحمل معها رائحة الغبار والحديد المحمى، أما ليريان، فصوت أجراس الإنذار يتردد في منذ الفجر...

دخلت المدينة في حالة حرب، و الملك الثالث أمر بصد غزو الشرقيين، همجيو الجبال الذين يطمعون في مناجم الذهب والأراضي الخصبة...

يركض جاسوس رفيع المستوى إلى قائد القوات الملكية، ينقل إليه بيانا منسقما ورسميا بأختام كل الأعضاء في مجلس الاستخبار، الذي استخلص معلومات عن الجيش الشرقي الذي يفوق جيش مدينة ليريان بثلاثة أضعاف أو أكثر، كما أنهم يريدون أن يهجموا في الليل..

تجمع الجنود في الساحة الكبرى أمام القصر، دروعهم الفضية تلمع تحت شمس الظهيرة الشاحبة، و سيوفهم المزخرفة مربوطة على الخصور، وجوههم شاحبة من الخوف والإرهاق...

داغون، قائد القوات الملكية، والذي اشتهر بلقب الذئب الأسود، يركب حصانه الأسود الضخم، درعه يغطي صدره كلوح حديدي، و خوذته مزينة بقرني ثور منحوتين كأنهما قرنا شيطان...

بجانبه، مساعده الأقرب، الرجل الذي يثق به أكثر من نفسه، يركب حصانًا أبيض نحيلاً، درعه أخف، لكن سيفه أطول، وجهه هادئ كالبحر قبل العاصفة. اسمه لا يُذكر كثيرًا في التقارير الرسمية، لكنه في الظلال، يستطيع أن ينفذ ما لا يستطيع داغون نفسه، فعله علنًا...

كان صوت داغون المدوي بعدما تأكد من وجود عدد كبير من الجنود المصطفين أمامه، بأنهم ذوو إخلاص له، رغم التعب والإرهاق:

-"أتحسبون أنفسكم رجالا والخوف يسقط اللحم عن وجوهم؟ هل ستسمحون لهمجيين لا حضارة لهم ولا عقل، أن يقتلوا أطفالكم ويذبحوا نساءكم والعار عليكم!

أنا، القائد الملكي، الذئب الأسود، أقطع عهدا لكم، بأنكم ستعودون أحياءً شجعان إلى مدينتكم، حيث يفخر بكم كل شخص يرى ظلالكم..

أيها الجنود، سنخوض حربنا الليلة، لكن العدو الطامع في خيراتكم، كثُر كالنمل، لكن الجندي الواحد منا، سيسحق بقدمه ذلك النمل..

آمركم بأمر ملكي، أن يقوم كل جندي منكم، بنحت ستة تماثيل بشرية، وكسوتها بقماش عسكري، وخوذ، من ماله الخاص، وسيتم تعويضكم لاحقا فالوقت لا يكفي الآن، خذوا فؤوسكم، واستعدوا للّيل، وليخبر كل واحد منكم بقية الجنود، ولا تسمعهما الجدران التي تأويهما..

هيا أيها الجنود الملكيون! "

يرفع سيفه ويصرخه، ويصرخ معه الجنود المتحمسين للحرب، والذين بدؤوا بالانسحاب بنظام وبسرعة، صوب الغابات الكثيرة التي تحيط بليريان..

يتجول داغون ومساعده في المدينة بعد خطابهما، يمرّان بالأحياء العليا حيث النبلاء ينظرون من الشرفات بقلق، ثم ينزلان إلى السوق الكبير حيث التجار يغلقون أبوابهم، والأطفال يختبئون...

كان صوت فؤوس الجنود مسموعا وقد بلغ حتى أحياء المدينة المركزية، وكانت الأشجار تقطع بسرعة، و الخشب يتساقط كالمطر...

في ساحات التدريب في أماكن مختلفة سرية، يبدأ النحت. الجنود يعملون بجنون، ينحتون الرؤوس دون المبالاة بالملامح، و يثبتون الأذرع التي لم تُنحت بشكل مثالي، فالحرفيون في النحت قلائل..

يرتدون التماثيل أقمصة قديمة، و خوذا صدئة أغلبها مزيفة، باستعمال أقمشة، مع رماح خشبية طويلة جدا..

داغون ومساعده يتجولان بينهم، يصرخ داغون:

-"أسرعوا! الشمس تغرب! كل تمثال يجب أن يبدو حيًا!"

في زاوية، كان هنالك جندي، يبدو عليه أنه جندي مبتدئ، شاب في الثامنة أو التاسعة عشر، وجهه أحمر من الجهد، ينحت تمثالًا بقوة، وبعشوائية..

داغون يقترب، و ينظر،

-"التمثال بدون عيون!" لقد كانت مجرد تجاويف، ليكفي الوقت لذلك.

داغون يصرخ بوجهه، عيناه تتسعان برعب مصطنع:

-"أين هما عيناه؟! أين عيون الجندي؟!"

الجندي يرتجف، يسقط الفأس، ثم يرد بخوف:

-"سيدي... لم تقل لنا أن نصنع أعينهم!"

داغون يقترب أكثر، وجهه على بعد شبر، و يهمس برعب: -" هل تعرف ماذا سيكون مصير من لا يفهم كلامي من الجنود، الموت! الموت البطيء!"

الجندي يبكي تقريبًا، يمسك سكينًا صغيرًا، يبدأ في نحت عيون بسرعة جنونية،و يداه ترتجفان....

مساعد داغون يقف خلفه، يحاول كتم ضحكه، ثم فجأة، داغون ينفجر بالضحك، وصوته يتردد في الساحة، يربت على كتف الجندي:

-"أحسنت يا ولد! الآن، أضف لهما بريقًا! اجعلهما تخوفان العدو!"

مساعده يضحك معه، وكذلك الجنود المجاورون الذي بدت على وجوههم ابتسامات زادت قوة إلى قوتهم، والجو يخف قليلاً، لكن الوقت يضيق...

كانت الشمس تقترب من الأفق، و الجنود يحملون التماثيل ويشحنونها في العربات لينقلوها إلى مواقعها، والتي بلغ عددها أكثر من اثني عشر ألف تمثالا،تُنقل إلى جبال الشرقبسرية،ة كل جندي يجر خلفه ستة تماثيل مغطّاة كليا، و يسيرون في صفوف طويلة،وكثيرة جدا...

تحرسهم من بعيد ومن الأمام، داغون وفرقته المتكونة من خمسمائة رجل، موزعين في صف عرضي، لكي يقطعوا لسان ويفقعوا عين كى من تسول له أن يتجسس على الذئب الأسود...

الليل يحل، السماء سوداء، القمر مخفي خلف الأفق تحاول النجوم تعويض ضيائه، وعلى قمم الجبال، يبدأ الترتيب.

كل جندي يقف وسط مئة تمثال، يثبت الرماح الخشبية في الأرض، يلفها بقماش مشبع بالزيت، ثم يشعلها...

النيران تشتعل صاعدة و تتحرك مع الرياح...

بعض الجنود يحملون رايات تشتعل ويحركونها يمينا وشملا، والبعض يضربون الطبول بإيقاع بطيء قاتل، جنود شجعان أعطوا للتماثيل حياة...

حتى أصبح الجيش يبدو من بعيد كأنه ثلاثة عشر ألف مقاتل، وثلاث عشرة ألف نار.

داغون يقف في الأمام مع خمسمائة جندي حقيقي، ينتظرون في واد ضيق، بينما مساعده يأخذ الباقين، ألف وبضع مئات، ويسلكون طريقًا سريًا خلف الجبال متسللين في ظلام الليل من وراء جيش الشرق...

ظهر الجيش الشرقي من بعيد، سوادٌ غاضب بأحصنتهم، والتي بلغ عددها عشرة آلاف حصان، دروعهم من جلود الدببة، و رماحهم طويلة جدا، يتقدمون بسرعة وأصموا ما يقابلهم من الجنود الشماليين بصراخهم...

لكن صراخهم توقف، لم يكن بأمر من قائدهم، ولا بآلام في حلق كل واحد منهم، بل كان ذلك المرعب لآلاف الجنود الذي يحملون رماحا في الجبال متسمرين، ويلوحون برايات محترقة، وإيقاع طبول يزيد كلما اقتربوا...

وبعد توقف صراخهم، توقفوا جميعا بأمر من القائد، رجل ضخم بشعر طويل، ووجه مليء بالندوب، راكبا حصانه الغاضب...

يتقدم باتجاه داغون، والذي بدوره يخرج من الصف، يتقدم بثقة عالية بعد أن سحب سيفه من غمده، و يقتربان من بعضهما...

القائد الشرقي ينظر إلى الجبال، و يرى النيران، ويفكر فيما سيفعله بالجواسيس الذين أخبروه أن عدد جنود الشماليين أقل من عدد جنوده...

داغون يبتسم، صوته يتردد:

-"أهلاً بك في أرضنا أيها الغاضب، لدي جيش كبير، عشرة آلاف؟ حسناً، نحن ثلاثة عشر ألفًا، فهل أنت وجيشك أجبن من أن تتقدموا؟ أم تنسحبون وتعطون ظهوركم لنا؟"

يقهقه القائد الشرقي بثقة كبيرة:

-"سنهدم تلك الجبال فوق رؤوسكم، وسنسكب في كؤوس النبيذ دماء أطفالكم! "

-" هيا إذن أيها الفتى الأحمق، هيا إلى هلاكك! "

يحمر وجه القائد الشرقي غاضبا مشيرا بسيفه:

-"اقتلوا الجميع!"

يأمر جنوده بالتقدم، الذين تقدموا مندفعين يركضون نحو داغون.

داغون يبتسم، يرفع يده:

-"الآن!"

جنود الطليعة يقدمون دروعهم المتينة التي تتوسطها رماح طويلة تخترق تلك الدروع، يصطدم جنود الشرق بالطليعة،المكونة من أضخم الجنود وأقواهم في البنية

داغون ينزل يده بعد أن رفعها، مشيرا إلى الرماة:

-"الآن! "

يركز المشهد على ذلك الجندي الذي صرخ داغون في وجهه، مصوبا قوسه وسط الرماة الذين بدؤوا بإلقاء وابل مشتعل من السهام النارية، والصخور المتلهبة المنطلقة من مناجيق كأنها عمالقة في صفوف الشماليين...

في الخلف، يظهر جنود على أحصنتهم، ألفا جندي يلفهم صمت قاتل، حتى صوت الجياد لم يكن مرتفعا، إنه مساعد داخون، أخوه من اللحم والدم والوالدين، يظهر فجأة...

برجاله يندفعون من الجانبين الخلفيين والخلف مباشرة، و يطعنون الشرقيين في الظهر،الرماح تخترق، والسيوف تقطع، والسهام تعدم حياة الهمج...

القائد يصرخ:

-"خيانة! خيانة من الخلف!"

جنوده يرتبكون، لكنه يأمرهم بمواصله القتال:

-" لا تنسحبوا !"

حتى يصرخ داغون:

-"جنود الجبال! "

ويندفع مئات الجنود من الخلف بعضهم رماة وأغلبهم مجهزين بدروع متينة، ينزلون لدعم الطليعة..

هز الارتباك أوساط الشرقيين، والكثير منهم انحسب، عندما علموا أن قائدهم ترك الجنود الخلفيين يذبحون بدون مقاومى..

حتى أكمل مساعد داغون على الشرقيين، وتحولت المعركة إلى مذبحة...

فقد داغون مئتين من الخمسمائة، لكن مساعده ورماته يقتلون آلافًا...

انسحب كوران محاولا الهروب، لكن مساعد داغون يلحق به، ويصيبه بسهم من الظهر إلى القلب...

جعل بقية الجنود الشرقيين،المئات منهم، يسلمون أسلحتهم ويرفعون أيديهم...

المعركة تنتهي، و الجثث، تملأ الوادي...

يقف داغون، ودمه يسيل من جرح في ذراعه، يحي أخاه من بعيد، وهو ينتظر أن يصل إليه...

تقدم بعض الجنود إليه ليوقفوا نزيف الدم، لكنه رغم ذلك، يمسك ذراعه اليمنى بيده اليسرى، حتى وصل إلى أخيه الذي نزل من حصانه وركض إلى أخيه يعانقه...

-"مبارك يا أخي، حمدا للرب أنك بخير!"

-" لقد أديت مهمتك بنجاح!"

يترك داغون النزيف يستمر في تدفقه غير مكترث، ويرفع بيده اليمنى ذراع إيرلان ويصرخ على الجنود:

-"حيوا القائد إيرلان!"

وعلا صوت الجنود وارتفع، يمجدون بطل المعركة الكبرى، القائد الذي جلب لهم النصر، إيرلان!

الفصل الحادي عشر:تتويج

في قاعة العرش الكبرى، جدرانها من الرخام الأبيض المستورد من جزر أكرايا، مزينة بنقوش ذهبية تصور معارك قديمة، يجلس الملك الثالث، أركاديوس، على عرشه المصنوع من خشب الصنوبر المطعّم بالفضة، يعلوه تاجه الملكي..

ملك قوي في عمر الخمسين، لحيته البيضاء مرتبة بعناية، عيناه حادتان كالصقر، لكنها تخفي تعباً عميقاً من سنوات الحروب، التي قضاها من أجل القصر الملكي بأبراجعه الخمسة التي تطعن السماء ببريقها، وهس تلمع تحت شمس الظهيرة الذهبية...

على يمينه، يقف الأمير سيفالوس، الوريث، عشرون ربيعاً فقط، بوجهه الشاحب كالثلج، لكن عيناه السوداوتان كالليل تكشفان عن مكرٍ بداخله عمره آلاف السنين، تُختصر لؤ ابتسامته باردة كالحديد...

يرتدي رداءً أحمر مطرزاً بالذهب، و يده اليمنى ترتاح على مقبض خنجر صغير في حزامه، الجميع يعرف أنه سيصبح يوماً ما، الملك السفاح، لكنه الآن مجرد شبح يقف في ظل أبيه...

قاعة العرش ممتلئة بالمستشارين والنبلاء الذين يرتدون الحرير والمخمل، و يقفون في صفوف منظمة، الجنود والحراس يصطفون على الجانبين، يحملون دروعهم الفضية التي تلمع وسيوفهم في أغمادها.

الجو مشحون بالترقب، والترحيب المكبوت.

الباب الذهبي يُفتح بصرير ثقيل، يدخل داغون، الذئب الأسود، بجسد قوي كالصخر، مرتديا أرفع الثياب والأوسمة، لكنه أبى أن ينظف درعه الملطخ ببقع دم جافة من المعركة الأخيرة، وأبى أن يخفي تلك الندوب على وجهه كذلك، لا حاجة لذلك، فبريق الانتصار في عينيه يخفي كل عيب في وجهه، خلفه، إيرلان، أخوه الصغير، بجسد أقل قوة من أخيه الأكبر لكن جسده متناسق قوي، ومرن رغم ذلك، يحمل درعه الأخف نوعا ما، وسيفا طويلا جدا، وجهه هادئ لكن عيناه تختبئان شيئاً أعمق.

التصفيق ينفجر في القاعة، والتبريكات تتردد في القاعة، و المستشارون يصرخون:

-"المجد لليريان! المجد للملك! المجد لداغون!"

وسط تصفيق الملك بابتسامة ظهرت منها نواجذه، ثم رفع يده، الصمت يحل، أما صوته فيملأ القاعة:

-"داغون، إيرلان، أبطال المعركة الشرقية، بدهائكم، وشجاعتكم، أرعبتم عشرة آلاف عدو، وأنقذتم المملكة.

لقد كتبتم التاريخ بدماء الأعداء!"

داغون يخني قليلا، وبصوته العميق:

-"جلالتك، الشرف لنا. أما جنودنا فهم الأبطال."

إيرلان يخني أيضاً، لكنه صامت، عيناه تجولان في القاعة، ثم تتوقفان عند الباب الجانبي.

الملك يبتسم:

-"ما الثمن الذي تطلبان؟ أراضي؟ ذهب؟ ألقاب؟"

داغون:

-"الخدمة لجلالتك هي الثمن الوحيد."

الملك ينظر إلى إيرلان:

-"وأنت، يا فخر أخيه؟"

إيرلان يفتح فمه ليرد، لكن عيناه تلتقطان شيئاً خلف ذلك الباب الذي لم يغلق تماما، مجموعة أطفال، عشرة أو أكثر، يُقادون بالسلاسل.

كانت أجسادهم نحيلة، أصغر من تلك الأقمصة الرمادية الموحدة، أيديهم مقيدة بسلاسل حديدية حول أعناقهم.. أحدهم، طفل لا يتجاوز العاشرة، ينظر إليه مباشرة، عيناه بريئتان، لكنهما تحملان ألماً لا يُوصف، ندبة عميقة تبدو وكأنها جرح سكين قديم، تعبر فوق عينه اليمنى والدم الجاف يحيط بها، ينظر الطفل إلى إيرلان، وهو يؤدي تحية ملكية، والملك يضع وسام

شجاعة على صدره وهو يبتسم ويحادثه، وإيرلان ينظر إلى الندبة فوق عين الطفل، عينٌ بدت وكأنها تستغيث طالبة النجدة...

توقف عالم إيرلان للحظة، انقبض فيها قلبه بشدة، شعور قاسٍ كأن سيفا يطعنه في الصدر.

الملك يكرر:

-"إيرلان، ما الثمن؟"

إيرلان ينتفض، يعود إلى الواقع:

-"جلالتك... لا شيء. الخدمة تكفي."

نظر الملك إلى الاتجاه الذي كان ينظر إليه إيرلان ولم يجد شيئا، ثم ابتسم وربت على كتفيه بيديه.

المراسم تكتمل، والملك يطلب من الجميع المغادرة، إلا داغون وإيرلان.

-"أنتما فقط، لدي أمر سري."

يخرج الجميع، والقاعة تخلو، الملك يقف، ويأمرهما بالاقتراب:

-" أريد تكليفكما بمهمة مؤقتة، ولا أريد لأحد أن يسمع بشأنها غيركما"

داغون ينحني قليلا:

-" أمرك، جلالتك"

يطمئن الملك، ثم يقول:

-"أريد أن تشرفا على بناء نفق سري، تحت القلعة، يكون ملجأ آمان للملك في حالات الخطر "

ينظر داغون إلى وجه الملك ويبدو عليه التفكير في الأمر:

-" بالطبع، جلالة الملك!"

-"حسنا، احرصوا على أن تأخذوا أفضل المهندسين والبنائين الذين تعلمون أنهم سيكتمون هذا السر، أريد أن تبدآ ببنائه غدا "

داغون يحني برأسه:

-"كما تأمر."

إيرلان صامت، عيناه على أخيه، وهو يعرف أنه يستشيط غضبا في داخله، إنه رجل تربى على المعارك منذ أن كان صبيا ، يحلم ويفكر كقائد جيوش، ما علاقته بالبناء، والبنائين!

يغادر إيرلان القصر مع غروب الشمس، وكانت وجهته الأخيرة منه، المطابخ الملكية، حيث يعمل صديقه سايمون، الطباخ الملكي، كانت المطابخ فوضوية، رائحة اللحم المشوي والتوابل تملأ الهواء، سايمون كعادته يصرخ على الطهاة الذين يصرخون بدورهم، ويعلو الصراخ مع النيران التي تشتعل في المواقد، يشاهد صديقه وهو يبتسم، رجل أصغر منه قليلا، بوجه مستدير، و يرتدي مئزراً ملطخاً بالزيت، وتحولت تلك الملامح إلى ابتسامة فور رؤيته لصديقه إيرلان:

-هاي، انظروا من جاء لزيارتنا، إنه بطل ليريان، لقد جاء ليتذوق شيئا ألذ من النصر!"

إيرلان يضحك مع الجميع، ثم يقول:

-" لكنك لم تتذوق نصر البارحة يا سايمون"

والذي رد:

-"أنا الذي علمت هذا الصغير كيف يلوح بسيفه! "

الجميع يضحكون، وإيرلان كذلك، ثم جلس على طاولة خشبية، حتى أتى إليه سايمون وهو يمسح يده المبللة بقطعة قماش:

-"هاي، إيرلان، لقد أريتك إياها ألف مرة أليس كذلك؟ "

ثم يرفع ثيابه عن ساقه اليمنى المصابة

-" لم تستشرني المعركة بأن أشارك فيها أم أنسحب"

-" لا مشكلة يا طباخ، أنا لم أقل شيئا بشأن هذا، لكنني سأقول، يا إلهي، ألف مرة وأنت تشتكي! "

يضحك سايمون ثم يقول:

-"بفضل انتصاركما، سأحصل على إجازة أسبوع، لقد اشتقت كثيرا لزوجتي وابنائي."

إيرلان يبتسم بحرارة:

-"بلّغهما تحياتي، واعتنِ بهم جيداً سايمون، قل للطفلة الصغيرة آنا أن العم إيرلان سيحضر لها هدية في المرة القادمة"

سايمون يربت على كتفه:

-"شكراً، أخي، سأخبرها بكل تأكيد، هاي إيرلان، اسمع، إنك فارس فارس قوي، ما زلت في الأربعينات من عمرك، إنك رجل مشهور في المدينة وبطلها، وتتمناك نساء كثر، هلاّ تبحث عن زوجة لنفسك؟ "

إيرلان يصمت، و عيناه تظلمان:

-"هل تجد لي مثل ليانا يا سايمون؟"

سايمون يخفض رأسه، يشد على شفتيه بحزن، ثم يضع يده على كتف إيرلان:

-"ليانا كانت نوراً، لكن النور يعود، بطريقة أو بأخرى، هي لم تكن تريد أن تعيش في الظل إلى الأبد أليس كذلك؟ "

إيرلان يبتسم بمرارة:

-"كانت ستقول ذلك بالطبع، لكن في قلبها، كنت أعلم أن كل ما أرادته، هو أن أكون لها وحدها، وهي تستحق ذلك! "

اليوم التالي، موقع الحفر، حفريات ضخمة، ومئات العمال: بنائين، مهندسين، جنود...

الغبار يملأ الهواء، و صوت المعاول يتردد، يتفقد إيرلان العمال ويصرخ في الحراس:

-"ضاعفوا الحراسة! لا أحد يدخل دون إذن!"

ويسرع الجنود للاتيان بالمزيد من الحراس حول القصر وموقع القصر، لكن استراتيجيات إيرلان جعلت الأمر في غاية السرية، وغير ملفت للانتباه بشكل ذكي.

يقترب مهندس من إيرلان:

-"سيدي، النفق السري يحتاج دعامات حديدية."

إيرلان:

-" حسنا، سجّل لي كل ما تحتاجه وسأخبر المسؤول عن الموارد بنفسي"

كان العمل شاقا، لكن فكرة التناوب وتكثير الرجال أتت ثمارها، وأحرزوا تقدما مرضيا في اليوم الأول.

في الغروب، أمر إيرلان الجميع بالتوقف عن العمل، واستئناف ما تبقى في اليوم التالي...

عاد مرهقا من العمل، لكنه لن يجد راحته حتى يجد أخاه في الثكنة العسكرية الملكية:

-"انظروا من جاء، إنه بطل المعركة"

ينهض الجنود إلى إيرلان ويحيونه بالتصفيق والتصفير، وهو يبتسم لهم رافعا يده لهم، حتى وصل إلى أخيه

-" مرحبا داغون"

-"أهلا بك إيرلان، كيف جرت أشغال اليوم؟ "

-"على ما يرام، آ، في الحقيقة، أريد أن أقول لك شيئا"

-"وما هو؟ "

-"أتفهم حبك للقيادة العسكرية، وأنا سعيد بأن أخبرك أنه يمكنني الاعتناء بالمشروع بنفسي! "

بدت ملامح الفرح على داغون وكأن أخاه قد عرف حقا ما يريده داغون بنفسه:

-" تستطيع القيام بذلك لوحدك؟ "

-"قمتُ بما هو أصعب منه! "

-"حسنا، سأخبر الملك بهذا الشأن"

ثم قام ليصافحه:

-"شكرا لك إيرلان "

-"على الرحب والسعة"

مرت أيام، وأسابيع، ثم شهور، وما زالت السرية تحيط بالمشروع الملكي، والذي لم يستطع اختراق سريته أكثر الرجال نفوذا في المدينة، لكن الأيام مرت ثقيلة على إيرلان، بسبب تلك الكوابيس التي يراها في منامه، وكل ما تحمّل إجبار نفسه على رؤيته، في سبيل الملك والمدينة الملكية، لكن نظرات ذلك الطفل، في يوم التتويج، لم تفارق ذهنه أبدا..

في يوم من تلك الأيام، وتحديدا، في موقع خاص، في الميناء، يرى إيرلان من بعيد، سفينة قادمة من أركاديا، كانت سفينة ضخمة، بشكل لفت انتباهه بقوية، لكن من بعيد، وعندما رست السفينة، لمح أناسا مكبلين، يسيرون في صفوف، ومن يحيد عندها يُضرب بالسوط حتى يعتدل،

تجاهل إيرلان كلام المهندسين ورمى ما في يده، ويصرخ على حامل السوط الذي وجده يضرب فتى به:

-"توقف، توقف! كفى! "

تسمّر الجلاد في مكانه، وأدى التحية العسكرية بسرعة، وصل إيرلان إلى المكان، وكل أولئك العبيد ينظرون إليه بعيون خائفة، ثم سأل ذلك الفتى:

-" هل أنت بخير؟ "

امتلأت عينا الفتى بالدموع، لكنها كانت عينان غاضبتان:

-"بخير، هل أبدو لك بخير! تقيدوننا بالسلاسل وتجلدوننا كأننا لسنا من البشر، كيف سأكون بخير! "

أُصيب الجميع بالصعق من الصدمة، هل يعرف هذا الفتى مع من يتكلم!

حمل الجلاد سوطه:

-"كيف تجرؤ! "

-"توقف، قلت يكفي! "

-"لكن سيدي"

-"لكن ماذا؟ ألم يكن محقا؟ هل سترضى أنتَ لو كنت مكانه؟ "

نظر إيرلان طويلا إلى الفتى بعيون صارمة، أخافته في داخله، لكنها كانت عيونا حائرة، مترددة...

انصرف إيرلان، تاركا كل من خلفه، لا يعلم أحد منهم ماذا سيكون التالي في حياته.

في اليوم الأخير من اكتمال المشروع وبعد أن حيا الجميع إيرلان فرحين باكتمال ما بنوه في مدة طويلة، أخبر إيرلان الملك بنفسه، سرا عند أذنيه كي لا يسمع أحد، وبدت على ملامح الملك

السرور، لكن، لم تلبث تلك الملامح طويلا قبل أن تختفي كأنها لم تكن، قبل أن يتحول المشهد إلى صرخات رافضة من الملك!

-"تستقيل؟ ما الذي تقول؟ لقد أقسمت على الولاء لي وخدمتي! "

يحني إيرلان قليلا:

-"هذا صحيح، جلالتك، لكن، لدي أسباب لذلك! "

-"هذا يكفي، سأتحدث إلى أخيك الأكبر، انصراف! "

انصرف إيرلان من القاعة، تاركا الملك في حالة غضب قصوى...

أتى إليه داغون في المساء، في دكان صغير في سوق المدينة

-" كيف أصبح بطل معركة الشرق فجأة شغوفا بتجارة الحشائش؟! "

-" لن أعود لخدمة الملك ثانية، داغون، لقد حاول هو بنفسه، ولم ينفع ذلك! "

-" ستعود رغما عنك، هذا لمصلحتك"

-"داغون، أنا لن أعود لخدمة من يستعبدون الناس، ويشوهون وجوه الأطفال! "

-"م.. ماذا؟ ما الذي تهدي به أيها.. هل أنتَ ثمل؟ "

-" لقد سمعت ما سمعت... "

-"سأخبر الملك بهذا! وستعود للخدمة مجبرا"

-"فلتحاول..."

الفصل الثاني عشر: نزال

الميناء في ليريان ليس مجرد مكان، بل كائن حي يتنفس، يزأر، يهمس، يبتلع، و يلفظ..
عندما وصل فيساكا إليه في فجر يوم مشمس لكنه مغطى بضباب كثيف ككفن رمادي يلفّ الرصيف الخشبي الطويل، شعر وكأنه دخل فم وحش بحري هائل ينتظره منذ سنوات...

كانت مدينة ليريان معقل الحضارة في البلاد، وأعجوبات هندسية تزينها، يقف خلفها كثير ممن ضحوا بأنفسهم من أجل هذه المدينة..

الرصيف، مبني على أعمدة حديدية صدئة تغوص في الماء كأنياب عملاقة، ويمتد لأكثر من ميل ونصف، مزدحم بعشرات السفن التي تحمل أرواحًا لا يجمعها إلا وجودها في الميناء.
سفن تجارية من جزر أكرايا، أشرعتها ملونة كالطواويس، تفوح منها رائحة القرفة والزعفران الحارة التي تخترق الضباب كسكين حاد؛ سفن صيد صغيرة، أجسادها متعبة، لكنها ورغم ذلك تجني الثروات السمكية من البحر كما يجني عمال مناجم الذهب أثمن المعادن، لكن رائحة السمك تختلف عن رائحة المعدن الثمين بالطبع...

كان منظر السفن الملكية المهجورة في الرصيف الجنوبي مرعبا وجميلا في نفس الوقت، ذلك النوع من الجمال الذي يعشقه فيساكا، سفن تمايل بكسل، مغطاة بالطحالب الخضراء والصدأ الأحمر، كأنها قبور عائمة تنتظر من يحييها، أو يدفنها إلى الأبد.

الهواء ثقيل، مشبع بروائح متضاربة تكاد تخنق الزائر الجديد، ملح البحر المالح يلدغ الأنف كإبرة، قطران ساخن يغلي في براميل حديدية على الرصيف، كانت أول مرة يرى فيها فيساكا البحر الهادئ، لكنه ليس هادئا إطلاقا، فأصوات الامواج العاتية لا تختلف عن أصوات الربانين التي لا تهدأ أبدا، وأصوات طرق المطارق على الحديد عند إصلاح سفينة،وكذلك أصوات الحبال وهي تُشد على الخشب بقوة. الشمس تشرق خلف الضباب كقرص نحاسي خافت، تضيء وجوه العمال الشاحبة، عيونهم فارغة كالأصداف، أجسادهم منحنية تحت أثقال الصناديق، و ظهورهم مليئة بالندوب.

فيساكا، يقف على حافة الرصيف، بحقيبته الصغيرة المعلقة على كتفه، ووجه ملطخ بحبر أو فحم أسود، يشاهد المنظر الجميل للبحر، بشعره الأشعث المربوط بشريط قماش بالٍ.

يتجول بين الربانين ومعاونيهم، الأمر أشبه بالسوق هنا أيضا، لا أحد يهتم بشأنك، الناس كثُر، وكلٌ يهتم لأمره فقط، لكن معاناة هارب مطلوب في مثل عمره، لم ولن تكون بالأمر الهين إطلاقا

-"صباح الخير، كابتن، أنا أبحث عن عمل، يمكنني أن أفعل أي شيء!"

الكابتن، بجسد ضخم مفتول العضلات من كثرة سحب وشد حبال الأشرعة، ولحية حمراء كثيفة وطوية، ينظر إليه من أعلى إلى أسفل، ثم يضحك ضحكة عالية:

-"عمل؟ وما مهاراتك، يا فتى؟"

-"يمكنني أن أفعل أي شيء يُساعد، مقابل طعامٍ وماء"

-"أعتذر منك أيها الفتى، لكن طاقمي ممتلئ عن آخره! "

رفع فيساكا يده، علامة تدل على رضاه بما قال، قبول الاعتذار، أو عدم الاكتراث، لكن، رفضت تلك المعدة الكفّ عن الصراخ، و قد نفد كل ما يملك هذا الشاب الذي يبدو نحيلا تحت ثيابه.

شد قميصه، لكنه استمر بالبحث عن شخص يقبل العمل عنده، يضيق عينيه، كأنه يزن المكان بدقة، يبدو أنه يختار حتى الربانين الذين يتحدث معهم وقائدي الطواقم...

مشى وهو يستمتع بمنظر البحر، ويستمع جيدا إلى صوت ارتطام الأمواج بالصخور.

-" كابتن، هل لديك أي منصب عمل شاغر؟ يمكنني فعل أي شيء، مقابل الطعام والمأوى! "

-" لا، لدينا ما يكفي، لا تضيع وقتي! "

يقول في نفسه:

-"يا إلهي كم هو متعجرف، كيف يمكن أن يتحمل أشخاص العيش مع هذا النوع من البشر! "

يبتسم ابتسامة خفيفة، ثم يجد نقطة جلوس هادئة، فيضع ما يحمل معه، ويرتاح قليلا..

-"هاي، أيها الفتى، انهض! "

-"أأو، أعتذر، لقد غفوت فجأة ولم أشعر! "

-" لا يهم، لكنني أحتاج إلى هذا المكان! "

-"حسنا، بالطبع"

يتحرك فيساكا من مكانه، ثم يأمر ذلك الرجل شابين بأن يضعا الصندوق في ذلك المكان.

-"سيدي، هل أنت رُبّان؟"

-"أجل، هل يمكنني مساعدتك؟ "

-"بصراحة، كنت أجوب الميناء كله للبحث عن ربان يمكنه أن يوفر لي الطعام والمأوى مقابل خدماتي، أستطيع فعل أي شيء.. "

يصمت الربان للحظة، ثم يقول:

-"أعتذر أيها الفتى، لو كان هنالك منصب شاغر لوظفتك فيه! "

يدفع فيساكا يده ملوحا بها بعيدا:

-"لا يهم "

لكن صوت معدته القوي يقول أنه يهم!

-" أيها الكابتن، هل لديك بعض الطعام؟ "

التفت الكابتن إلى أحد معاونيه، وأمرهم بإحضار بعض الطعام له..

-"وماء، رجاء! "

نادى الكابتن على معاونه ليتوقف، وذهب هو بنفسه إلى غرفة خشبية قريبة، أحضر معه رغيف خبز شهي، وماء، ومكنسة، ثم قال:

-" تناول هذا، ثم قم بعملك، يمكنك المبيت في ذلك المكان هناك"

-"شكرا، كابتن، بالمناسبة، اسمي آرثر! "

-"الكابتن غريمور"

وغادر مع معاونيه، بعد أن حدد مجموعة من الأماكن التي سينظفها فيساكا، والذي تناول ذلك الرغيف بِنَهم، وبدأ ينظف حتى استغرق النهار كله في التنظيف، يكنس الرصيف بفرشاة خشنة مصنوعة من ألياف النخيل، ويفرك الأرضيات الخشبية بماء البحر حتى تلمع كالمرايا، يحمل صناديق التوابل الثقيلة رغم ألم ظهره، وفي نفس الوقت، يراقب كل حركة، وكل مكان، وكل وجه..

حل الليل، وفي أثناء عمله:

-"هااي، آرثر، انتهى العمل! "

ينادي الكابتن على فيساكا، ليعود إلى غرفة خشبية في الميناء، كانت غرفة كبيرة بحق، حيث وجد شباب ورجالا كثر، في مجموعات، يتحدثون ويقامرون والصراخ يعلو المكان..

-"هناك، حيث يقدم العشاء، وهناك، مكان نومك"

ذهب فيساكا ينتظر في الصف، مع بقية الشباب، كان أغلبهم ذوي بنية عضلية ضخمة من كثرة الأعمال، أكثرها، حمل البضائع الثقيلة ونقلها.

حمل صحنا من السمك، والخبز، وكأسا من الماء، إلى طاولة وجد فيها مقعدا فارغا، بين ثلاثة شباب، وقبل أن يجلس، أسقط أحدهم الكرسي عمدا..

-"يا إلهي، إن رياح البحر تسقط الكثير من الأشياء هنا، أتساءل كيف صمدت في وجهها أشياء أخرى أخف من الكرسي!"

بدأ الثلاثة يضحكون، لكن فيساكا ركل الكرسي على ذلك الشاب، وناظره بنظرات غاضبة، ثم ذهب إلى طاولة أخرى...

جلس فيساكا أخيرًا إلى طاولة صغيرة في زاوية القاعة، بعيدًا عن الأعين، حيث يمكنه أن يأكل دون أن يلتفت إليه أحد، كان الطبق بسيطًا: سمك مملح، قطعة خبز يابس، وكأس ماءٍ عكر قليلاً، لكنه بالنسبة إليه كان وليمةً حقيقية.

أمسك بالخبز بيدٍ مرتجفة، ثم غمسها في الماء ليطرّيه قليلًا، وبدأ يأكل ببطء، يمضغ كل لقمة كما

لو كانت آخر ما يملك في الدنيا.

كان ينظر حوله بصمتٍ، يرى الرجال يضحكون، يتشاجرون، يتراهنون، يقامرون على عمل اليوم التالي، وكأن هذا الضجيج هو موسيقاهم اليومية المعتادة.

لم يكن يشاركهم أيًا من ذلك، كان عقله في مكانٍ آخر، في بحرٍ آخر...

حين أنهى طعامه، مسح فمه بكمّ قميصه، ثم نهض متجهًا إلى المكان الذي أشار إليه الكابتن غريمور للنوم فيه.

كانت الغرفة مظلمة، ممتلئة بأجسادٍ منهكة، وروائح العرق والبحر والقطران تختلط في الهواء حتى تكاد تخنق الداخل.

استلقى فيساكا على لوحٍ خشبي ضيق، بلا وسادة، بلا غطاء، لكن عينيه لم تغمضا فورًا...

الضحكات والشتائم تتعالى من كل زاوية، كأن البحر نفسه اقتحم الجدران ليشاركهم الصخب.

أحدهم يغني بصوتٍ أجش، وآخر يتحدث عن مغامرته في جزيرة بعيدة، وثالث يقهقه كمن نجا من الموت.

أما فيساكا فكان يحدق في السقف الخشبي المهترئ، يستمع إلى صرير الألواح مع كل موجة تضرب السفينة الراسية قربهم، ثم يغلق عينيه أخيرًا، كان يوما متعبا بحق!

غفا بين الضحكات والضوضاء، غفوة فتى اعتاد النوم وسط العواصف...

مع الفجر، حين بدأ الضوء يتسلل من الشقوق الضيقة في الجدران، استيقظ قبل الجميع. جلس على حافة اللوح، يفرك عينيه، ثم نهض بهدوء، حمل المكنسة الخشنة، وخرج إلى الرصيف، كان الهواء باردًا، والبحر لا يزال يتنفس ببطء، لكن فيساكا كان أول من بدأ العمل.

كان يقوم بكل شيء تقريبا، كنس الأرض المبللة من بقايا الليل، حمل الصناديق الثقيلة إلى المخازن، نظف الحبال السميكة الملتفة على الأعمدة، وغسل ألواح السفن بماء البحر حتى لمع الخشب كأن الشمس تشرق من تحته.

كان يعمل بصمتٍ ودقة، لا يتوقف إلا ليملأ رئتيه بالهواء المالح،

لم يكن فيساكا عاملًا عاديًا، بل كان يتحرك وكأنه يقيس كل خطوة، يتأمل كل تفصيلة في هذا المكان الجديد...

الميناء بدأ يصحو، والرجال يخرجون واحدًا تلو الآخر، بينما كان هو قد أنجز نصف العمل قبل أن يستيقظوا حتى...

رفع فيساكا نظره ببطء، والوجبة المبعثرة على الأرض تتناثر حول قدميه كدماء جرح كرامته، كان ذلك في الليل، بعدما تكرر مشهد أمس مجددا، لكن الفتى هذه المرة أكثر وقاحة، كيف يدع تلك الركلة المهينة من الشاب النحيل تمر بدون عقاب؟

صمت المكان لحظة، قبل أن تنفجر ضحكاتٌ خافتة من أطراف القاعة.، الفتى المعتدي ابتسم بازدراء، ممسكًا بكوب مملوء بنبيذ رديء، وقال وهو يغمز لرفيقيه:

-"يُحكى أن مسمارا أراد أن يثور في وجه المطرقة! "

نهض فيساكا بهدوء، مسح يديه من الفتات، ثم رفع قميصه وخلعه ببطء،

الأنوار الخافتة المنعكسة من مصابيح الزيت كشفت عن جسد لم يكن كما ظنه الجميع، عضلات بارزة، منحوتة كتماثيل المرافئ القديمة، جلد مشدود بلون النحاس، وندوب رفيعة على الذراعين والكتفين تحكي تاريخًا من الصراع والخطر...

توقف الصخب فجأة، وبدأ الهمس يدور بين الرجال:

-"مستحيل... هذا، الفتى النحيل؟!"

الفتى المعتدي تراجع خطوة، لكن غروره منعه من التوقف، صاح متحديًا:

ـ "تعال إذن أيها النحيل ، أرِنا ما يمكنك فعله!"

لم يجب فيساكا، اكتفى بخطوة واحدة للأمام، وعيونه كجمرٍ متقد، يحدق بثباتٍ مرعب.

ضرب الهواء بقبضته بخفة، فصدر صوت كصفعةٍ على الحديد، جعل القاعة كلها تصمت، أو تترقب بحماس!

ثم اندفع الاثنان.

لكمة سريعة من الفتى الأول صوب وجه فيساكا، تفاداها الأخير بانحناءة دقيقة، وردّ بركلة خاطفة نحو الصدر، ارتطم جسد الخصم بالطاولة وسقطت الأكواب، وبدأ الحشد يصرخ:

ـ "هيا،هيا، نَل منه!"

بدأت الأجساد تتجمع في دائرة، والضجيج يرتفع، والكابتن غريمور نفسه خرج من غرفته وهو يحدق بصرامةٍ لم تعهدها القاعة من قبل.

لكن فيساكا لم يلتفت إليه.

أمسك خصمه من ذراعه، لَوّاه للخلف بقوة حتى انطلقت صرخة مكتومة، ثم دفعه أرضًا وثبّت ركبته على ظهره...

وجه فيساكا صار ظلًا قاتمًا، وصوته منخفضًا كهدير الموج:

-"اسمع جيدًا... لا تلمس طعام رجل جائع، ما لم تكن مستعدًا لدفع الثمن."

الفتى صرخ من الألم، والعرق يغطي وجهه، حتى تراجع الجميع، وبعضهم بدأ يصفق، والبعض الآخر يصيح مستمتعًا بالعرض...

كانت القاعة تغلي بالفوضى بعد العراك، الصراخ والضحكات تمتزج بأصوات الطاولات المقلوبة، والرجال يصفقون وكأنهم في ساحة مصارعة لا في قاعة طعام.

لكن الباب الخشبي انفتح فجأة بصوتٍ حاد، فعمّ الصمت كالسيف.

وقف الكابتن غريمور عند العتبة، كتفاه العريضتان تسدان الضوء، وصوته جهوريٌّ كالرعد:

ـ "كفى أيها الحمقى! أنتم في ميناءٍ ملكي لا في حانة منسية!"

تجمد الجميع، حتى أولئك الذين كانوا يضحكون صاروا يشيحون بوجوههم، والفتى الذي تلقى الضربات تراجع إلى الخلف كقطٍ مبلول.

تقدم غريمور بخطواتٍ ثقيلة، يضرب الأرض بحذائه الجلدي كمن يدق الطبول.

نظر إلى الجميع، ثم صاح:

ـ "انصرفوا الآن! الجميع خارجًا!"

تحرك الرجال على عجل، كأن الريح حملتهم إلى الخارج، ولم يبقَ في القاعة إلا فيساكا، واقفًا وسط الفوضى، أنفاسه لا تزال حارة من القتال.

أشار إليه الكابتن بإصبعه الخشنة:

-"أنت، ابقَ هنا."

أغلق الباب خلفهم، وساد صمت ثقيل لا يُسمع فيه سوى خرير الموج من بعيد.

جلس غريمور على الطاولة المقلوبة، ونظر إليه طويلاً بنظرةٍ لا تخلو من الفضول:

-"من أنت بالضبط، أيها الفتى؟ قلت إن اسمك آرثر، لكنني أرى ما هو أبعد من اسمٍ مزيف."

أخذ فيساكا نفسًا عميقًا، ثم قال بهدوء:

- "قلت الحقيقة، كابتن. أنا مجرد شخص يبحث عن طعامٍ ومأوى. لم أبدأ الشجار، لكنني أنهيته."

ابتسم غريمور بسخرية خفيفة، ثم قال:

- "هذا واضح... لكن اعلم شيئًا، هنا لا نحلّ الأمور بالكلمات، ولن أسمح بتكرار ما حدث الليلة، فهمت؟"

أومأ فيساكا دون أن يرفع عينيه.

ثم تمتم بصوتٍ خافت بالكاد يُسمع:

ـ "لن أبقى طويلًا هنا أصلاً..."

رفع غريمور حاجبه وقال بحدة:

ـ "ماذا قلت؟"

ابتسم فيساكا، ورفع رأسه:

ـ "لا شيء، كابتن، مجرد حديثٍ مع نفسي."

حدق به الكابتن لحظة طويلة قبل أن يلوّح بيده:

ـ "اذهب، ونَم. ستحتاج قوتك غدًا."

خرج فيساكا بخطواتٍ هادئة، ونام تلك الليلة وكأن لا شيء حدث، بينما ظل الكابتن واقفًا في مكانه، ينظر نحو الباب وكأنه يحاول اختراقه ببصره.

في الصباح، كان فيساكا أول من استيقظ كعادته، يعمل في صمتٍ كظلٍّ يتحرك بين الأخشاب.

أما غريمور فكان يقف عند الشرفة العالية المطلة على الميناء، يشرب قهوته السوداء ويقول لأحد فتيانه:

- "راقبه جيدًا... ."

هزّ الفتى رأسه، وظل يلاحق فيساكا بعينيه طيلة النهار.

لكن مع حلول المساء، ركض نحو الكابتن وهو يلهث:

ـ "كابتن! لقد وجدت شيئًا في حقيبته!"

تجهم وجه غريمور، تبعه إلى الغرفة الخشبية حيث وُضعت حقيبة فيساكا الصغيرة.

فتحها الرجل أمامه، وأخرج منها بذلة حارس ملكي داكنة اللون، مزينة بشعارٍ ملكي محفور على الكتف.

التفت غريمور نحو فيساكا، الذي كان واقفًا في الظلّ، يراقبهما بهدوء.

قال الكابتن بصوتٍ منخفض لكنه يحمل نبرة خطر:

-"خبئ هذا الزي، سأستجوبه عليه مساء! "

حل المساء، وقبل أن يدخل فيساكا إلى تلك الغرفة الكبيرة تجمع كل أصناف الرجال، أوقف الكابتن بيده:

-" ما هذا، آرثر؟ أو... من تكون حقًا؟ لماذا تحمل زيّ حارسٍ ملكي؟ هل أنت جاسوس؟"

ضحك فيساكا ضحكة خافتة، هادئة لكنها حادة كالنصل، ثم قال:

ـ "أتعرف يا كابتن؟ كان يمكنك أن تسألني مباشرة، دون أن تقوم بتعيين ذلك الأحمق مُراقِبا علي، لقد تركت الحقيبة مفتوحة عمدا، لأرى متى سيأتيك راكضا، وبالطبع، هو لم يخيب ظني."

تراجع الكابتن خطوة، وعيناه تضيقان:

ـ "هل تتلاعب بي؟"

اقترب فيساكا حتى صار وجهه في الظلّ، وصوته أشبه بهمسة بحرية:

ـ "أنا لا أتلاعب بأحد، كابتن... لكن من الأفضل ألا تبحث في ما لا يخصك."

-" هل تقول هذا لمن قَبِل بمثلك وضمه إلى رجاله وأكل مما يأكل! "

وقف غريمور صامتًا للحظة، ثم قال بصرامةٍ متوترة:

ـ "إما أن تفسر الآن، أو أُسلمك للحرس فورًا."

رفع فيساكا عينيه، وفيهما بريق خفي، وقال بابتسامة غامضة:

ـ "ماذا لو كان الاثنان؟"

-" ما الذي، ماذا تقول؟! "

-"ماذا لو فسرتُ لك الأمر، لكنك ورغم ذلك، قد تسلمني للحرس فورا؟! "

-" لديك كلمة رجل، يشهد عليه جميع الرجال هنا"

-" حسنا، لكن يستحسن أنك لست متعبا، لأن كلامي لن يتركك تنام! "

-" حسنا إذن، لنرى أيها الفتى الغريب"

-"إذن، هل سندخل؟ "

الفصل الثالث عشر: جرائم قديمة

القصر يئن بصمتٍ ناعمٍ تحت ثقل السلطة، لكن قاعات العرش لا تنام. في قاعة العرش الكبرى ترتجف الجدران من نفَس الكلام، وتتنهد الأرض من وقع الأحذية. الشموع في الثريات تدفق نورها ببطء، وكأنها تراقب ما يجري دون أن تنحاز. رائحة البخور تسبح فوق روائح الدم القديمة، والصمت الذي تلاهد مع أول امرٍ للملك كاد يتحول إلى إعصارٍ من الهمسات.

جلس الملك الرابع، سيفاليوس، على عرشه، ووجهه الذي بدا كقناعٍ منحوتٍ من حجرٍ عنيد لم يعد يحتمل، تلوّى بالغضب. كانت عيناه الجافتان كقوسٍ مشدود، وعلى شفتيه ارتعاشٌ خفيف يخفيه عن العامة.

-"من سمح لك أن تُنهي حياة رجلٍ مثله بهذه الطريقة؟" قال الملك بصوتٍ جافٍ كأوراقٍ يذروها الريح.

-"جلالتك، لم أكن أقصد القتل، كنت أريد معرفة مكان الخائن"

رد سيف الملك بصوتٍ مسموعٍ لكنّ عيناه تهربان.

-" كان يقاوم، لم يكتفِ بالتستر عنه، السياط كانت للإجبار على الكلام، لكن...

-"أي كلام هذا؟" قاطع الملك:

-"إيرلان ليس مجرد عجوزٍ في سوقٍ رطب، لقد كان التاريخ الذي ركع أمامنا مرارًا، إنه الظل الذي تعرفه الحروب قبل أن تعرفه أنت، كنتُ أريد أن أتحرى عنه بنفسي! كيف تجرؤ أن تمحو جزءً من ذاكرة المملكة بمثلك؟"

صمتٌ ضاغط يملأ القاعة، الأمير سيفالوس جلس متكئًا، وجهه الثلجي لا يشوبُه حياء، يده على مقبض خنجره، يرمق المشهد بابتسامةٍ لا تعرف الرحمة، الحاشية التي أحاطت بالعرش تبدو الآن كجمهرةٍ من الوجوه المتحجرة، كلٌ يترقب أثر الانهيار القادم.

-"ادفنوه بكرامة"

أمر الملك أخيرًا بصوتٍ منخفضٍ لكنه حاسم

-"لا تُعلنوا شيئًا، لا تقارير، وابقوا الأمر سرا!"

نزل القرار كحكمٍ نهائي، جنود القصر أُمروا بأن ينسحبوا، والحرس بدأ يتوزع في الممرات كجناحٍ ينتشر لحماية الجسد..

سيف الملك انحنى، وانصرف إلى جناحه الغربي، خطواته كانت ثقيلة كمن يحمل عقابًا على ظهره، لكن

في اللحظة التي همّ فيها سيف الملك بمغادرة القاعة، تعثرت خطواته، كأن الأرض سحبت أنفاسه. كانت كلمات الملك ترنّ في رأسه كصدى جرس الموت..

توقف عند الباب، يداه ترتجفان رغم صلابته، واستدار ببطء نحو الملك، صوته خرج متردّدًا، خافتًا كهمسٍ في الريح:

-" جلالتك... إن سمحت لي... هل يمكنك أن تخبرني من كان إيرلان حقًا؟"

رفع الملك سيفاليوس رأسه نحوه ببطء، وبدت في عينيه نارٌ دفينة، خليط من الغضب والذكريات. صوته خرج ثقيلاً، حادًّا كحدّ السيف:

-"أأنت تجهل من قتلت؟!"

-" كنتُ أظنه خائنًا، يا مولاي، لم أكن أنوي قتله، ظننته رجلًا من العامة."

-"العامة؟! لقد حميتَ هذا العرش بسيفٍ صنعه هو!"

ارتجف الهواء في القاعة، وارتد صدى صوته بين الأعمدة الرخامية، سيف الملك خفض رأسه في خزي، ولم يجد في فمه سوى الصمت، نهض الملك من عرشه، وبدأ يمشي حتى وصل إلى مكان في القاعة:

-" إيرلان كان أخا القائد السابق للقوات الملكية... كانا معًا يوم سقطت جيوش الشرق! "

رفع عينيه إلى السقف، كأنه يرى المشهد مجددًا.

-" كنتُ يومها وليًّا للعهد. أقف على يمين أبي في هذه القاعة ذاتها، الملك الثالث، متوجا إياه وأخاه أمام الجميع.

بطلا المملكة! صاح الجميع، ضجّت القاعة بالتصفيق، سُكبت الخمر احتفالًا، والعالم كله انحنى له"

صمت الملك، كأن الحنين خنقه. ثم نظر نحو سيف الملك، والبرد في صوته هذه المرة كان أشد من الحديد:

-" والآن، يا سيف المملكة، أنتَ من أنهى حياته، قل لي، ماذا سأفعل بك، لماذا لا تطلعني على التفاصيل؟ هل تدرك حقا من أكون؟! "

تراجع سيف الملك نصف خطوة، كأن صفعة غير مرئية ضربته في صدره. شعر بأن الأرض تبتلعه، أن الهواء صار أثقل من الحديد.

انحنى عميقًا، دون أن يجرؤ على رفع نظره، وقال بصوت مبحوح:

-"أذن لي جلالتكم بالانصراف، أعدكم أنني سأصحح أخطائي ولن تكون مجددا! "

لكن صدمة سيف الملك، بإدراكه أن كان ينظر إلى نفس الشخص، قبل ثلاثين سنة، من باب هذه القاعة، شخص كان الوحيد الذي كافأه بالنظر إليه!

في المساء، عندما أُطفئت أنوار القصر وعمّ الصمت أروقة الحكم، خرج سيف الملك لوحده، دون حرس، دون راية، دون سيفه حتى...

كان الغضب يشتعل في صدره كجمرٍ مكتوم، وملامح الملك لا تزال تطارده في ذهنه، وصدى كلماته يصفعه من الداخل.

الليل كان بارداً، والقمر نصف وجهٍ يبكي خلف الغيوم. عبر الأزقة الضيقة نحو الحي الذي لم تطأه قدماه من قبل،، حيث تتقاطع رائحة الخبز المحترق مع رطوبة الجدران القديمة. هناك، بين بيوتٍ رمادية السقوف من القرميد الأحمر، وقف أمام منزل صغير، بابه الخشبي متشققٌ يئنّ تحت الريح، نافذته تُطلّ منها شذرات ضوءٍ شاحب كأنها روحٌ تتنفس بصعوبة، لكن المصادفة، هي أنها تطل على القصر الملكي!

طرق الباب ثلاث مرات. لم يُجِب أحد. طرق الرابعة، بصبرٍ مريض، ثم دفع الباب بيده فانفتح بأنينٍ كأنّ البيت نفسه يشتكي من الوحدة.

في الداخل، يجلس فتى، وحيدا، على طاوله، يقرأ ورقة يهم في كل مرة أن يحرقها، كانت عيناه حمراوين، محاطتين بتعبٍ أكبر من عمره... يمسك فرشاة مصنوعة من شعر حصان، ويغمسها في صبغةٍ باهتة، ثم يتركها تسقط على الأرض كمن أعلن استسلامه.

تقدّم سيف الملك خطوة، صوته حادٌّ كالحديد لكنه خافت، كأنه يهاب تحطيم هذا الصمت الهش:

-"هاي، أيها الفتى، أنتَ وحيد أليس كذلك؟"

رفع الفتى رأسه، ووقف فجأة، الفرشاة تتدحرج من يده، ووجهه يتحوّل من خوفٍ إلى غضب.

كأنه لم يدرك وجوده حتى:

-"من أنت، هل أنت من جنود الملك؟ إذا كنت تبحث عن إجابة، فأنا لا أعرف! ولو كنتُ أعرف، ما قلتُ لك!"

اقترب سيف الملك بخطواتٍ باردة، ووقف أمامه حتى صار الظلّ يغطي جسد الفتى بالكامل.

-"لقد تركك معرضًا للخطر وذهب...

إن ذلك الفتى مختل، هل تصدق أنه قام برمي جثة في وسط المدينة؟ لم يعد، هو خانك، خان المملكة. فلماذا ما زلت وفيًا له؟"

شهق أدريان كمن طُعن في صدره، وارتجف صوته، لكنه رفعه رغم ذلك.

-" أنتم جنود الملك... لا تعرفون إلا الظلام! لا تعرفون معنى الوفاء! تقتلون الناس في الشوارع، وتسمّون القتل عدلاً! تظلمون الفقراء، تبنون قصوركم على دمائهم! فيساكا... لم يكن خائناً، علمني الكثير، أعطاني الخبز حين جعت، دفأني في ليالي البرد، وحماني من السارقين!"

تغيرت ملامح سيف الملك للحظة، كأنه تذكّر شيئاً بعيداً، لكنه سرعان ما أخفى ذلك تحت قناع البرود.

-"نحن نحمي هذا الشعب، نحمي مملكته من الفوضى. نحن من بنينا الطرق، أقمنا المحاكم ليسود العدل، وأطعَمنا الأيتام. أليس هذا خيرًا؟"

ضحك أدريان ضحكةً قصيرة، خشنة، محشوة بالمرارة.

-"تفعلون ذلك لتلمّعوا وجوهكم أمام السماء! لا أحد في الشوارع يصدقكم! الفقير يموت وهو يحمل ضريبة خبزه، والمظلوم يُعدم لأنه صرخ! أنتم تسرقون لقمة الطفل لتُطعموا كلاب الملك! ثم تقولون أنها للمملكة! "

تقدّم سيف الملك خطوة، صوته هذه المرة ارتفع قليلاً، يحمل في نبرته ما يشبه الغضب المبرّر:

-" وهل تريد بلاداً بلا حاكم؟ حين يغيب الملك، تأتي الوحوش! أنا من رأيتُها بعيني وأنت لم ترى، ما زلت صغيرا، كيف تدرك أن في الفوضى يكثر السارقون الذين يذبحون الرجال في الأسواق، ويدخل الأعداء الذين يتربصون من الحدود، الحكم ليس لعنة... الفوضى هي الجحيم.! "

اقترب أدريان حتى صار وجهه أمام صدر سيف الملك، بعينين متقدتان بالنار:

-"ولماذا لا يكون هناك ملك عادل؟ لماذا لا تحكم الرحمة بدل السيوف؟

لماذا لا يكون الحاكم إنساناً لا وحشاً؟"

كاد سيف الملك أن يرد، لكنه لم يجد الكلمة... نظر إلى الفتى طويلاً، تنفّس بعمق، ثم قال بصوتٍ منخفضٍ مبحوح:

-" أنت لا تعرف شيئاً، أيها الفتى الصغير، أنتَ لا تعرف ما مررتُ به، يا إلهي، أنتَ تقول كلاما أكبر من سنك بكثير، وترى العالم على أنه لوحة بيضاء"

دار نحو الباب ببطء، وكل خطوة منه كانت تترك في الغرفة برداً.

وقبل أن يخرج، قال أدريان بصوتٍ مكسورٍ لكنه ثابت:

-" بل هو كذلك... لكنكم جعلتموه أسود"

توقّف سيف الملك للحظة، لم يلتفت، ثم مضى خارج البيت.

-" إذن، ألن تقول أين هو؟ "

-" يمكنك أخذي وتعذيبي وتجبرني على ذلك! "

كان الغروب قد ألقى آخر خيوطه على أسطح المدينة، حين خرج سيف الملك من القصر، وحيدًا كما لم يكن من قبل. لم يرافقه جند ولا ظلّ، فقط صدى خطواته فوق الحجارة العتيقة، وخفة الريح التي تمرّ من بين الأزقة كأنها تهمس له بما لا يريد أن يسمعه.

كانت المدينة تمتد أمامه كلوحة حيّة رسمها فيساكا ذات يوم، لكن الألوان فيها الآن بهتت؛ بريق الذهب صار رماداً، وضحك الباعة صار خافتاً كأن شيئاً في الهواء فقد نكهته.

دخل سوق المدينة ، فاستقبلته فوضى الحياة بكل رائحتها وضجيجها.

على جانبي الطريق، كانت الدكاكين تفتح أفواهها للمارّة:

أكياس من التوابل تصنع سحابة من العطر فوق الرؤوس، رائحة القرفة تمتزج بالفلفل الأسود والكمّون، تلسع الأنوف وتوقظ الذاكرة.

في الزاوية الأخرى، الخبازون يخرجون أرغفة دافئة من الأفران، بخارها يرتفع كدعاء إلى السماء.

أقمشة الحرير والكتان تتدلّى من السقوف، تتلوّن مع ألسنة المشاعل التي تشتعل على الأعمدة الخشبية، بينما يصيح التجار بأصواتهم الجهورية:

-"أفضل الأقمشة من الجنوب!"

-"تمور من واحة أركا!"

-"زيت الورد! دواء للروح قبل الجسد!"

الأطفال يركضون بين الأقدام حاملين قطع الحلوى، والنساء يتفاوضن بذكاءٍ لا يقلّ عن التجار، والرجال يضحكون حول طاولات الشاي كأنهم نسوا أن العالم يتداعى عند أطراف المملكة.

سار سيف الملك وسط الزحام، وعيونه تبحث عن المكان الذي قيل له إن فيساكا كان يبيع فيه لوحاته.

وعندما وصل، توقف...

كان المكان زاوية صغيرة، محاطة بجدارٍ نصف مهدّم، عليه بقايا ألوان باهتة، الأصفر، الأزرق، الأحمر، آثار أصابع تركها الرسام ذات يوم...

وقف سيف الملك طويلاً، حتى تجمعت حوله نظرات الباعة القريبين، سأل أحدَهم بصوتٍ عميقٍ خافت:

-" من كان هذا الرسام؟

نظر إليه شاب بملابس أنيقة وعيون حذرة ، وقال:

-"آه، فيساكا؟ لقد كان فتىً طيباً، لا يمرّ يوم إلا ويُطعم طفلًا جائعًا أو يدافع عن امرأة أهانها أحدهم. لم يكن كالباقين، كان قلبه أنقى من ألوانه، من المؤسف ما حدث له حقا! "

تقدّم تاجرٌ آخر، شيخ ذو لحية بيضاء وعلى يديه حناء:

-" أتذكره منذ صغره، لقد كان دائم الحركة، يمارس الحيل الصغيرة ليسرق تفاحة أو يخفي عملة ثم يعيدها بضحكة. كنت أضحك كثيرا حين أراه، لكنه كبر، ونمت بداخله الشجاعة، لم يعد يضحك كثيرًا، وكان يرسم الفقراء كأنهم ملوك، كان هذا الفتى إذا رأى ظلمًا، لا يسكت. رأيته مرة يواجه جندياً ضرب عجوزاً، وكاد يلقى حتفه يوما"

سكت التاجر، ثم أضاف بصوتٍ خافتٍ فيه احترام:

-" الفتى الرسام... كان لا يملك شيئاً، لكنه كان يجعلنا نشعر أننا نحن الفقراء."

ظل سيف الملك صامتًا، في صدره كان شيء يتحرّك، ثقل يشبه الحنين، لكنه أثقل من الندم نفسه.

كان يسمع أصوات الناس حوله تتلاشى، والمشهد كله يذوب في ذاكرته كألوانٍ على لوحة مبتلة.

غادر السوق في صمت، دون أن يلتفت.

في الطريق المؤدي إلى القصر، مرّ من زقاقٍ ضيقٍ تفوح منه رائحة المطر القديم. هناك، لمح ظلّ رجلٍ يقف على بُعد خطوات، ملامحه غامضة، وجهه مغطى بغطاء رأسٍ أسود.

توقّف سيف الملك فورًا، يده تحركت نحو مقبض سيفه الذي لم يكن معه، لكن الرجل اختفى في لحظة، كما لو تبخّر مع الريح.

نظر حوله مجددا، لكنه لم يجد أحدًا، لكن شيئًا داخله همس له بأن ذلك لم يكن رجلاً... بل ظلّه هو نفسه.

الحزن الذي صار يتبعه أينما ذهب...

لكن في الحقيقة، كان رجلا حقيقة..

رفع سيف الملك، رأسه نحو السماء الرمادية، وأطلق زفرةً طويلة.

كان الليل يهبط على المدينة، والمشاعل تُضاء من جديد، لكن داخله كان يغرق في ظلامٍ آخر لا يشعله أي نور.

كان مجرد طفل انتزع انتزاعا مع أخيه الأكبر، من والديها يوم هرب ملك الشرق وانتشرت الفوضى..

وكان الممر المؤدي إلى الأسفل أضيق من أن يتسع لأنفاس الخوف التي تموج في صدور الأطفال، الدرج الحجري الطويل يلتف في صمتٍ كأفعى غافية، تمتد جدرانه الرمادية كأضلاع مقبرةٍ عتيقة، تتقاطر من سقفه قطرات ماء باردة تُحدث صدى يشبه شهقة موتٍ مؤجلة.

أحد الأطفال تعثّر في الظلام، فامتدت يد صديقه لتسنده، لكنّ الجندي الواقف خلفهم صرخ:

ـ" لا تلمسه! امشِ!"

كانت المصابيح المعلقة على الجدران تصدر وهجًا أصفر خافتًا، يلمع على الدروع المعدنية للجنود فيعطيهم هيئة أشباحٍ من نار وحديد.

كل خطوةٍ إلى الأسفل كانت تنتزع من الأطفال عامًا من طفولتهم...

وعندما وصلوا إلى الغرفة الأخيرة، اتّسع الصمت كجنازة.

كانت الغرفة الكبيرة تعجّ بطاولات خشبية، وأدوات حديدية، وأوانٍ زجاجية يسبح فيها شيء يشبه الدمّ، لكن لونه مائل إلى الرمادي.

وقف رجلٌ أبيض الشعر، يرتدي معطفًا طويلًا ملطخًا بالبقع الداكنة، قال ببرودٍ مميت:

-"ضعوهم هنا..."

ثم أشار إلى صفين من الأسرّة الحديدية.

اقترب أحد الجنود من فتى صغير يحمل ملامح الذكاء في عينيه، سأل الرجل الواقف:

- "هذا له أخ، أليس كذلك؟"

أجابه الطبيب بابتسامة باهتة:

-"رائع... سيكونان مثاليين للتجربة التالية."

صرخ الطفل الأكبر عندما حاولوا فصل أخيه الصغير عنه:

-"لا، أرجوكم، لا تأخذوه... هو يخاف من الإبر...لا، لا! "

لكن الجندي دفعه أرضًا وقال بغلظة:

-"ستراه... فقط شاهده"

مرّت الساعات بطيئة كالموت.

كانوا يحقنون الأخ الأصغر بعقاقير غريبة، فتبدأ أطرافه بالارتجاف، ثم تنتفخ عضلاته وتزرقّ عيناه.

صرخ باسم أخيه الأكبر لكي ينقذه، صرخ حتى انقطعت أنفاسه، حتى تحوّل صراخه إلى حشرجة، الأخ الأكبر الذي وعده بأن يحميه، لم يكن يستطيع الحركة، فقط ينظر... يرى كيف تُغتال الطفولة أمامه.

اقترب الطبيب من الجندي وقال ببرود:

-"ما زالت التجربة غير مستقرة... الأنسجة تنهار سريعًا! "

ثم أضاف وهو يسجّل ملاحظاته:

- "سنجرب على الصديق التالي."

مرت الأيام...

وتكررت التجارب، وبدأ الأطفال يفقدون أصواتهم وابتساماتهم، كلّ منهم يحمل في قلبه شاهد قبرٍ لصديقٍ أو أخٍ رحل أمام عينيه، لكنّ الأكثر قسوة... أن يُجبروا على الاستمرار في الحياة بعدها.

وفي الزاوية، جلس فتىً شاحب الوجه، يضم ركبتيه إلى صدره، يهمس:

-" لماذا؟ لماذا أنا؟ لماذا هو؟"

لكنه انهار على الأرض، يضع ركبتيه ويديه عليها متحسرا تكاد روحه تفارقه كما فارقت دموعه عيناه:

-" لو كنت أقوى.. "

كبر الأخ الأكبر وكبرت معه تلك الندبة على عينه اليمنى، ولا يتذكر اسمه الحقيقي، لا يعرف عن نفسه سوى ذكريات مؤلمة، وأنه ليس إلا سيفا، لخدمة الملك..

الفصل الرابع عشر:هل يليق به

كان الصباح في حيّ الكنائس يشبه صلاةً تتجسّد على هيئة مدينة.، الهواء باردٌ نقيّ، مشبعٌ برائحة البخور والخبز الطازج الخارج من أفران الرهبان.

الأبراج العالية ترتفع إلى السماء مثل أصابعٍ من حجرٍ تلامس الغيم، وأجراسها تدقّ بنغمةٍ واحدةٍ تشقّ سكون الفجر.

النساء يعبرن الأزقة حاملات سلال الورد والزيت، والرجال يحيّون بعضهم بابتسامةٍ وعبارةٍ متكررة:

-"الرب معك، سلام الرب عليك"

والأطفال يركضون حفاةً على الحجارة المرصوفة، يتبادلون الضحك قبل أن يختفوا بين صفوف البيوت البيضاء التي تزينها نوافذ خشبية صغيرة وعناقيد عنبٍ جافة معلقة عند الأبواب.

في قلب الحي، كان منزل القس فارين يختلف عن بقية البيوت، بوّابته الخشبية العتيقة منحوتة بمشاهد قصص، ونص، من العهد القديم:الرب نوري وخلاصي فممن أخاف.

البيت من الداخل غارقٌ في سكونٍ مطمئنٍ، كأنّه لا ينتمي إلى هذا الزمن.

على الجدران، لوحاتٌ زيتيةٌ للقدّيسين، وألواحٌ خشبيةٌ محفور عليها الصليب والحمامة.

في حديقة صغيرة تسقي فيها إليزابيث ورودًا حمراء تشبه في لونها الدم الطاهر، تقول دائمًا وهي ترويها:

-"إنها ورود المسيح، يا فارين... لا تزدهر إلا بالحبّ والرحمة. "

كان فارين في أواخر الخمسين من عمره، جسده ممتلئ من سنوات الولائم الكنسية والمواسم المباركة، بشرته وردية كمن اعتاد دفء النبيذ المقدس، عيناه زرقاوان هادئتان تشبهان سماءً بعد المطر، وصوته عميق فيه دفء الراحة.

استيقظ من نومه وهو يتمتم بصلاةٍ قصيرة، ثم ابتسم لزوجته الجالسة قرب النافذة.

قال بنعومةٍ معتادة:

-"صباح الخير يا إليزابيث"

فأجابت بابتسامةٍ أموميةٍ شفافة:

-"الرب يبارك يومك، فارين. لقد أعددت لك الفطور، الخبز المقدّس، والجبن، وبعض العسل."

من خلفها، ركضت الطفلة الصغيرة إيلين ذات الاثنتي عشرة سنة، شعرها الأشقر مضفور كإكليل.

تعلّقت بعنق والدها وقالت بلهفةٍ طفولية:

-"أبي، هل تحكي لي الليلة قصة المسيح واللصّ الذي تاب على الصليب؟"

ابتسم فارين ووضع يده على رأسها:

-"بالطبع يا ملاكي، لكن بعد أن تعودي من المدرسة"

ضحكت الصغيرة، وقبّلت خده قبل أن تهرع إلى الخارج.

ارتدى فارين رداءه الأبيض الطويل، وثبّت صليبه الذهبي على صدره، ثم ألقى نظرةً أخيرة على زوجته.

قالت وهي تعدّل ياقة ثوبه:

-"لا تتأخر اليوم، حسنا؟

ابتسم بلطف :

-"لن أتأخر... الرب يبارك عملك وصبرك يا إليزابيث."

خرج إلى الشارع.، حيث كانت الحجارة المرصوفة لا تزال باردة من ندى الليل، وصوت الأجراس يتردد بين الأبراج كأنّ المدينة كلها تصلي، حيّا فارين الجيران بصوتٍ عالٍ مهيبٍ يشبه الترانيم:

-"الرب معكم، أيها الإخوة!"

فانحنوا باحترامٍ وقالوا معًا:

-"والرب معك، سيدي القس!"

ثم تابع سيره عبر الأزقة، رداؤه الأبيض يتمايل مع نسيم الفجر، يشبهه الناس عادة بالملاك الذي يسير بين الناس.

أكشاك الخبز تفتح أبوابها، وباعة التوابل يملؤون الهواء برائحة القرفة والقرنفل...

صوت الباعة، همس النساء، ضحك الرجال، وصيحات الأطفال، كلّها كانت نغمةً واحدةً تُرافق خطواته نحو الكنيسة الكبرى.

وصل أخيرًا إلى الكنيسة العظمى، مبنى شامخ من الحجر الأبيض النقي، كأنه قطعة من السماء سقطت على الأرض.

أبوابها الخشبية الضخمة منحوتة بمشاهد من الكتاب المقدس، النوافذ الزجاجية الملونة تمسك أشعة الفجر وتحولها إلى ألوانٍ زاهية تُراقص الغبار في الهواء.

أخرج مفتاحًا ذهبيًا كبيرًا من جيبه، فتح الأبواب بخشوعٍ كما لو كان يفتح قلبه، ثم قال بصوتٍ مفعم بالسكينة:

-"صباح الخير، أيها الإخوة في المسيح. الرب يبارك عملكم ويجازيكم خيرًا."

رفع العمّال رؤوسهم عن المكانس، وانحنوا باحترامٍ خاشع:

-"صباح الخير، سيدي القس، ليرعاك الرب."

أومأ لهم بابتسامةٍ هادئة، ثم مشى بخطواتٍ بطيئة بين المقاعد الخشبية، رائحة الشمع والبخور تملأ المكان، وأشعة الضوء ترسم حوله هالةً ذهبيةً كأنها تعترف بقداسته.

وقف أمام المذبح، نظر إلى الصليب المعلّق، وقال في نفسه بصوتٍ خافتٍ لا يسمعه أحد:

-"يا ربّ، امنحني اليوم قلبًا نقيًا... واغفر لي ما رأيته في الليالي القديمة."

ثم أغلق عينيه، وشهق شهقةً خفيفة، كأنّ شيئًا ما من الماضي عاد ليطال قلبه من جديد...

صعد القس فارين الدرج الرخامي المؤدي إلى المنبر.

كلّ خطوةٍ له كانت تُحدث صدى كأنّها طرقات قدرٍ على باب السماء.

وقف أمام المصلّين، والكتاب المقدس بين يديه.

يداه ترتجفان قليلًا، رغم دفء الصباح.

رفع عينيه إلى الجموع، وابتسم ابتسامةً مُتعَبة، فيها شيء من النور وشيء من الذنب.

فتح الكتاب على صفحةٍ مألوفة، وقال بصوتٍ مهيبٍ يحمل نغمة الراهب والخطيب:

-"أيها الأحبّة في المسيح يسوع... "

وبدأ خطابه الكنسي، والذي تضمن كلامه:

-"إنّ الملك سيفاليوس، سيف العدل، حامي الكنيسة، هو الذي أقامه الرب ليكون حارس الإيمان ضدّ الهراطقة والخونة، صلّوا من أجله، أيها الإخوة، واشكروا فضله الذي حفظ السلام في أرضنا الطاهرة."

رفع صوته أكثر، حتى ارتجّ القبو الحجري بصدى كلماته:

-"تبرّعوا لصناديق الكنيسة، لنُقيم الملاجئ للفقراء، ونبني بيوت الرحمة، وننشر كلمة الرب في كلّ أرجاء المملكة!"

هتف الناس بصوتٍ واحدٍ كأنهم جوقةٌ سماوية:

-"آمين!"

ثم بدأوا يتقدّمون واحدًا تلو الآخر نحو الصناديق النحاسية الكبيرة عند المذبح.

صوت العملات وهي تسقط في داخلها كان يشبه المطر على سطحٍ نحاسي، كان بعضهم يرمي القليل، وبعضهم الكثير، وبعضهم يرمي كلّ ما يملك.

وعيون الحراس الواقفَة قرب الأعمدة تلمع في الخفاء.

وقف فارين يراقب، ملامحه ساكنة لكن صدره يغلي.

تسللت إلى ذهنه صورةُ وجه طفلٍ جائع كان قد مرّ أمام بوابة الكنيسة منذ يومين، طرده الحراس لأنه متسخٌ ولا يحمل نقودًا، تذكّره الآن، وهو يرى أكوام الذهب تتجمع في صناديق الرحمة...

لكن صوته الداخلي غرق تحت ضجيج الترانيم.

عندما انتهت الصلاة، انصرف الناس واحدًا تلو الآخر.

القاعة التي كانت قبل قليل بحرًا من الوجوه أصبحت فارغة إلا من صدى الأقدام ووهج الشموع الأخيرة، إلا شخصا واحدا.

جلس فارين على أحد المقاعد، يمرّر أصابعه على الخشب المصقول، يسمع في داخله طنين الأجراس البعيدة، وصوت زوجته وهي تقول له صباحا بأن لا يتأخر.

تنهد بعمق، كأنما يحاول طرد دخانٍ من صدره.

اقترب منه أحد الرهبان الشباب، قال بخفوت:

-"سيدي القس، هل أنت بخير؟"

أجابه بابتسامةٍ صغيرة:

-"نعم، يا بني، أنا بخير... هل سنذهب لعد التبرعات وتنظيمها؟ "

-" سنترك الأمر لك ولأعوانك كالعادة، فكل الناس يثقون بك! "

ظلَّ فارين في الغرفة الصغيرة خلف المذبح، حيث الضوء الخافت من شمعة نصف منطفئة يذوب ببطء على الخشب العتيق. كانت رائحة البخور القديمة قد علقت بالهواء، وهدير الريح يتسلل من الشقوق العالية كأن الكنيسة تتنفس من تعب يومها الطويل.

منذ انتهاء العظة، لم يغادر الغرفة، ظل جالسًا أمام المنضدة، يعبث بحبات المسبحة دون أن ينطق بكلمة. تأكل الأفكار رأسه كغربان تدور حول جثة في حقل مهجور.

مرَّت الساعات بطيئة كحجارة تُسحب على الأرض، حتى دقَّت الأجراس إعلانَ المساء الأخير.

عندما حلّ الظلام، خرج الرجل أخيرا من غرفته، يحمل مفتاحًا ضخمًا يتدلّى من حزامه، توقّف عند الباب وقال بصوت متردد لشخص ما زال لم يبرح مكانه في الكنيسة:

-"سيدي ، حان وقت الإغلاق... الجميع غادروا منذ زمن! "

لم يتلقَّ جوابًا، حتى كرر فارين:

-"سيدي؟"

نهض الرجل أخيرا، لم يقل شيئا، جمع أوراقه التي كانت ملقاة أمامه، ثم غادر..

خرج فارين إلى الممر الحجري الطويل، وخلفه خادمان يطفئان الشموع واحدة تلو الأخرى، حتى غرق المكان في ظلال راقصة.

فتحوا الأبواب الضخمة، واندفع الهواء البارد من الخارج، حاملاً رائحة المطر الأول...

خرج الثلاثة إلى ساحة الكنيسة المرصوفة بالحجارة، كانت المدينة قد غفت تقريبًا، سوى أصوات عربات بعيدة ونبح كلابٍ متقطع وأغنية سكرانٍ تتلاشى بين الأزقة.

توقّف فارين عند العتبة، أدار نظره إلى السماء التي تتشقّق فيها خيوط برقٍ خافت، ثم همَّ بالنزول على الدرج الرخامي، حين سمع صوتًا يأتي من الخلف:

- "انتظر... أيها القس فارين"

التفت ببطء.

كان هناك رجل يقف في الظل، قبعته تغطي جزءًا من وجهه، ومعطفه الأسود مبتلّ بطرف المطر. اقترب بخطوات هادئة.

قال فارين، محاولًا أن يبدو صارمًا:

-" الكنيسة مغلقة، يمكنك العودة غدًا.

ردّ الرجل بصوت عميق فيه نبرة تهديد مموّهة:

-" بل من الأفضل أن نتحدث الآن... و دون وجودهما"

أشار إلى الخادمين الواقفين على بُعد، تبادل الثلاثة النظرات، ثم قال فارين:

-"لا بأس، تحدث أمامهما، لا أسرار هنا."

ابتسم الغريب ابتسامة قصيرة خالية من الدفء:

-"بل هناك أسرار كثيرة، وأخشى أنك لن تُحبّ ما سأقوله."

في تلك اللحظة، شعر فارين بانقباضٍ غامضٍ في صدره، كأن قلبه استيقظ فجأة على خطرٍ لا يُرى، أمر الخادمين بصوتٍ حادّ:

-" اذهبا".

ترددا لحظة، ثم انصرفا بصمتٍ نحو الجانب الآخر من الساحة، تاركين القس وحده مع الرجل الغريب.

اقترب الرجل أكثر، حتى صار وجهه واضحًا في ضوء المصباح القريب، لقد كان شخصا بملامح معروفة..

اليد اليمنى لإيرلان، غارين.

-"من أنت؟ وماذا تريد؟ "

-"لدي طلب... كبير"

-" أي نوعٍ من الطلبات؟

-"حسنا، قبل أن تُصاب بالصدمة، يمكنني أن أسألك أسئلة عن المسيح أليس كذلك؟ "

-"حسنا، تفضل؟ "

-"في الحقيقة، أخبرني صديق يعرفك، بل يعرفك جيدا، ويعرف عنك الكثير، أن أسألك هذه الأسئلة، أيها القس فارين، بماذا تؤمن حقا؟! "

-"أنا أؤمن المسيح، الابن من الأب وكلهم إله، أتى إلينا خلاصنا من الخطايا"

-" حسنا، هل يليق بالإله أن تحيطه الأحشاء والدماء، والجلد والعرق والشعر؟ هل تعتقد حقًا أنه يمكننا أن ندرك ذات إلهنا بجسد فيه أمعاء، فيها ما يتمنى الإنسان أن لا يكون فيها؟ "

-" ويحك أيها... "

-"بماذا تجيب؟ "

-"هذه الأسئلة لا ينبغي أن تُسأل أبدا! "

-"حسنا، لدي أمر آخر"

مدّ غارين يده وأخرج من جيب معطفه ورقة مطوية، ثم ناولها له ببطء.

فتحها فارين الغاضب، قرأ بضع سطورها، كان الخط صغيرا حتى قرّب الورقة إلى عينه، فتجمّد لسانه.

رفع نظره غاضباً:

-"ما هذا الهراء؟ من أين جئت بهذه الأكاذيب؟"

رفع غارين حاجبه وقال بهدوء يشبه السكين:

-"إنها ليست أكاذيب، بل حقائق. نحن... شبكة، كما يسمّوننا، نملك سجلاتك يا فارين، كل شيء: سرقتك لأموال التبرعات، خياناتك المتكررة لزوجتك.. "

انقبض فك فارين، واحمرّ وجهه من الغضب:

-" انتبه لما تقول!"

اقترب غارين خطوة أخرى، حتى صارت أنفاسه قريبة من أذن فارين:

-" لدينا أرقام مبالغ ، أسماء، تواريخ... كلها مألوفة لك، لا تحاول الإنكار"

من الصدمة، سقطت الورقة من يد القس على الأرض المبللة، لكن غارين التقطها، ومد يده إليه ليأخذها..

-" إن ضيعت هذه الورقة، أو أخبرت أحدا بها، أو رفضت القيام بأي شيء تتضمنه، فاعتبر نفسك خاسرا، لن ترى ابنتك إيلين ولا زوجتك إيليزابيث مجددا، إنهما تستحقان المخاطرة بنفسك أليس كذلك؟ "

-" لا تذكر اسم زوجتي على لسانك أيها.."

-"أششت، يكفي، حسنا، لن أذكر اسميهما، ما دمت ستفعل ما طُلب منك!"

ثم استدار وغادر بين الظلال، تاركًا فارين وحيدًا تحت المطر الخفيف، والذي لم يفهم شيئا مما حدث له، وشعر أنه قد خسر كل شيء، واحتمال نجاته... ضئيل، جدا...

أغلق يده على الورقة، ومضى ببطء نحو الممر المظلم للكنيسة، بينما الأجراس البعيدة تعلن منتصف الليل.

كانت الأزقة شبه خالية عندما غادر فارين ساحة الكنيسة. المطر الخفيف الذي بدأ عند منتصف الليل تحوّل إلى رذاذ كثيف يلسع وجهه كالإبر. كان يسير بخطوات متثاقلة، يضم معطفه حول صدره كمن يخفي داخله سرًّا أثقل من المطر نفسه،

في يده اليمنى، كانت الورقة المطويّة لا تزال رطبة، وحروفها تسربت بالحبر إلى أطراف أصابعه.

كل خطوة كان يسمع معها صدى صوت غارين في رأسه:

-"لدينا سجلاتك... خيانتك... أموالك المسروقة..."

كان يشعر أن الكلمات تلتف حول عنقه كحبلٍ من نار.

تسلّل عبر الممر الحجري، ثم خرج إلى الطريق الضيق المؤدي إلى بيته.

البيوت القديمة كانت تنام خلف نوافذ مغلقة، والهواء المحمّل بالبخار يصعد من البالوعات كأن المدينة نفسها تتنفس خوفًا.

توقّف أمام باب خشبي رمادي متآكل، أدخل المفتاح ببطء، فتحه، ودخل دون أن يصدر صوتًا.

في الداخل، كانت رائحة الحساء البارد والشموع المنطفئة تعبق في المكان.

من المطبخ، خرجت زوجته، إليزابيث ، برداءٍ سميك، تحمل مصباحًا صغيرًا، ارتبكت حين رأته واقفًا هناك، مبللًا حتى العظم، وجهه شاحب، ونظراته غارقة في الفراغ.

-" يا إلهي، فارين...! أين كنت طوال هذا الوقت؟ كدت أذهب إلى الكنيسة أبحث عنك!"

لم يجب. أغلق الباب خلفه ببطء، وأسند ظهره إليه، كأن التعب يسحبه إلى الأرض.

اقتربت منه، ولمست كمَّ معطفه البارد.

-"أنت ترتجف! تعال، اخلع هذا، ستمرض"

أزاح يديها برفق، ثم جلس على الكرسي الخشبي قرب الموقد الذي خمد ناره.

قالت إيلزابيث وهي تحاول أن تكسر الصمت:

-"سأعيد إشعال النار، وسأسخن العشاء، قليلاً من الحساء سيعيد دفء جسدك."

رفع نظره إليها ببطء، عيناه زجاجيتان، كأنهما لا تريانها حقًا.

-" تتعبي نفسك، إيليزابيث.. لست جائعًا".

-"ولكنك لم تأكل منذ الصباح!"

-"قلت لك، لا داعي."

صوته كان هادئًا، لكنه محمّل بشيء ثقيلٍ لا اسم له.

نزعت عنه المعطف بيدين مرتجفتين، علّقته قرب النار، ثم نظرت إليه بخوفٍ خفيّ.

-" هل حدث شيء؟ في الكنيسة... هل شجرك أحدهم؟ أنت لا تبدو بخير يا فارين."

أدار وجهه عنها، وعيناه إلى الأرض.

-" لا شيء.... مجرد تعي"

اقتربت منه خطوة، تلمّست وجنته الباردة.

-" تعب؟ أم همّ؟"

لم يجب.

عادت تسأله بنبرة أضعف:

-"هل أنت غاضب مني؟"

هز رأسه بالنفي، ثم نهض فجأة.

- "سأذهب لأنام"

في الأعلى، دخل فارين غرفته، أغلق الباب خلفه.

جلس على السرير، وأخرج الورقة من جيبه.

كانت الحروف قد تشوّهت بالماء، لكن المعاني ما زالت تلسعه كالجمر.

قرأ السطور الأخيرة مرة بعد مرة، كأنها لعنة لا يمكن محوها.

ثم طواها، وأخفاها تحت وسادته.

تمدّد على الفراش، مغمض العينين، لكنه لم يقدر على النوم...

الفصل الخامس عشر:تماثيل للملائكة

في الضواحي الشمالية حيث يلتقي الحياة والموت عند حواف العالم،
كانت المقبرة القديمة تمتدّ على مدّ البصر كبحرٍ من الحجارة الرمادية.
القبور متلاصقة، بعضها غارق في الطحالب، وبعضها الآخر مكسوّ بالعشب البريّ الذي نما دون إذن،، وتماثيل الملائكة ترفع أيديها نحو السماء تغزو المقبرة، أجنحتها مكسورة، وجوهها مطموسة بعوامل الزمن...

الريح تمرّ، تعوي بين الصلبان والرخام، وتحرّك أكاليل الورد اليابسة على القبور،
تحمل معها رائحة ترابٍ رطبٍ وصدأ الحديد من بوابة المقبرة العتيقة.
في ذلك الصباح الرماديّ،
وقف عند الحافة من بعيد، رجلٌ ضخم الجثة، كتفاه عريضان كجدار،
عيناه رماديتان كالصخر، لا تومضان، و لا تشفقان، من الصعب أن يُصدق أن هذا الرجل يظهر أحيانا مرحا، بشكل يجعل المرء يظن أنهما شخصان متناقضان في شخص واحد.
كان يرتدي ثياب تاجرٍ بسيط، قبعة داكنة، ورداءً بنّيًا فضفاضًا يخفي تحته شيئًا أثقل من المال.
وقف صامتًا خلف عربةٍ خشبية صغيرة، يتظاهر بأنه يراقب بضاعته،
لكن عينيه كانتا تتبعان شخصًا واحدًا بعنايةٍ قاتلة، وحيدا في المقبرة، في ظهيرة يوم الأحد..

ذلك الشخص كان رجلاً في الستين أو السبعين من عمره، نحيلًا،

وجهه شاحبٌ لكنه مشدود، عيناه حادتان كمن يعرف طريقه بين الظلال.

اقترب ببطء من قبرٍ محدّدٍ وسط صفٍّ طويل من القبور،

يحمل في يده باقة زهورٍ طازجة، ورودٌ حمراء وبيضاء،

تلمع قطرات الندى على أوراقها.

انحنى، ثم وضع الزهور بعنايةٍ فوق شاهدٍ حجريٍّ مائل،

كانت الكلمات التي يهمس بها تتلاشى في الهواء كما تتلاشى الأرواح...

ثم وقف، نظر حوله للحظة،

واتجه نحو الزقاق الضيّق خلف سور المقبرة واختفى بين الضباب.

ظلّ الرجل الضخم يراقب المشهد حتى النهاية،

ثم دوّن شيئًا صغيرًا في دفترٍ جلديٍّ أسود،

ابتسامةٌ باهتة مرّت على شفتيه كأنها نذرُ موت،

ثم غادر ببطء في سبيله.

حلَّ الليلُ على المقبرة كما يحلّ الكفن على الجسد.

السماء ملبّدة بسحبٍ سوداء سميكة تخفي القمر تمامًا،

ولا ضوء سوى ذلك الوميض الخافت من مصابيح المدينة البعيدة.

كانت الريح تزمجر بين الأشجار العارية،

تحمل في طياتها صدى كلابٍ تعوي في الحقول النائية،

ورائحة طينٍ مبلولٍ بعد مطرٍ خفيف.

كل حجرٍ، كل قبرٍ، كل تمثالٍ بدا كأنه يحدّق بفراغٍ أبديّ نحو الداخل.

في تلك العتمة، ظهر ظلّ طويل يتسلل من بين القبور.

إنه تورك نفسه، مساعد إيرلان الثاني،

يتحرك كأشباح الحرس القدامى الذين لم يجدوا سلامهم بعد.

ملابسه داكنة، خطواته مدروسة، وصدره يعلو ويهبط ببطءٍ محسوبٍ.

توقّف أمام القبر الذي وُضعت عليه الزهور في الصباح.

انحنى،و مدّ يده، لَمس الورود بلطف، زهور كانت ما تزال طريّة،

أدارها قليلًا إلى اليمين.

ثم أخرج من كيسه الصغير حصى بيضاء ناعمة،

بدأ يضعها واحدةً تلو الأخرى على الأرض،

بترتيبٍ دقيقٍ:

واحدة... اثنتان... ثلاث...

حتى بلغ العاشرة، خطًّا مستقيمًا كأنها خريطةٌ مرسومة بالرموز.

توقّف للحظة، نظر حوله، العزلة مهمة جدا، لكن من يهتم للأموات، في هذا الوقت...

لا أحد.

فقط الريح، وظلال التماثيل المائلة، وهمسات الموتى التي تتردّد مع العاصفة.

أخرج مجرفةً صغيرةً معدنية من حقيبته الجلدية،

بدأ بالحفر على القبر، لكنها حفرة سطحية جدا، ليخفي رسالة صغيرة، مزودة بخيط أحمر كان الجزء الوحيد الذي يظهر، مربوطا في باقة الزهور..

ثم قام، مشى باتجاه الورود مسافة، ثم غرس المجرفة في الأرض بجانب القبر.

التراب كان رطبًا، يلتصق بالأداة، وصوت الحفر يشقّ الصمت كطعنةٍ في ليلٍ ميت.

حفر بهدوء، حتى عمق ذراعٍ ونصف، ثم أخرج من كيسه صندوقين صغيرين من الخشب الداكن.، لم يُفتح أحدهما،

واكتفى بأن دفنهما بعناية،

ثم غطّى الحفرة من جديد، ضغط التراب براحته، وسوّى سطحه كما كان.

مسح العرق عن جبينه رغم البرد،

ثم جلس لحظة على ركبتيه،

ينظر إلى القبر بصمتٍ يشبه الصلاة.

همس بصوتٍ لا يسمعه أحد:

-"لنرى ما الذي تفكر فيه أيها الفتى "

ثم نهض، و ألقى نظرةً أخيرة على المقبرة التي غمرها الظلام،

على الملائكة المكسورة والزهور الراحلة،

ثم استدار، ومضى بخطى بطيئة نحو البوابة الحديدية الصدئة.

صوتها حين فتحها كان كأنها تصرخ من وجع القرون الماضية.

مرّ عبرها، واختفى في الضباب، تاركًا خلفه مقبرةً هادئة...

لكنها تنبض سرًّا خفيًّا بين القبور...

كانت المدينة نائمة، أو هكذا يبدو لمن يجهلها.

لكن تورك كان يعرف أن ليل ليريان لا ينام قط.

ففي الوقت الذي تنطفئ فيه مصابيح الشوارع الرئيسية،

تستيقظ الأزقة الخلفية ككائناتٍ سوداء تتنفس بخوفٍ وحذر.

الريح تهب من البحر، تحمل معها رائحة الملح والقمح الفاسد،

وفي الأزقة المبللة بالندى، تنعكس أنوار المشاعل البعيدة على البرك الصغيرة،

فتبدو الأرض كأنها مرآة مكسورة من الضوء والظلال

كان الزقاق ضيقًا للغاية، بالكاد يتّسع لرجلين يسيران جنبًا إلى جنب.

جدرانه العالية تتقشر منها طبقات الطلاء العتيق،

وأنابيب الصرف القديمة تهمس بقطرات ماءٍ باردةٍ كأنها عدٌّ تنازليّ للموت.

توقّف تورك عند نهاية الزقاق،

عَيناه الحادتان تتفحّصان المكان كما يفعل جنديّ في ميدان قتالٍ غير مألوف.

كانت الساعة متأخرة، لكنه لم يكن يخاف، بل كان أكثر حذرًا من المعتاد.

من بين الظلال ظهر رجلٌ نحيل، وجهه نصف مخفيّ بقبعةٍ داكنة،

يمشي ببطءٍ، خطواته لا تصدر صوتًا، وفي يده كيسٌ من القماش الخشن، اقترب الاثنان دون تحية، كأنّهما لا يريدان أن يعرف العالم أنهما التقيا.

تبادل نظراتٍ سريعة، نظراتٍ أثقل من الكلام.

تورك بصوتٍ منخفض لكنه قاطع:

-"هل الكمية كافية؟"

أجابه الرجل بصوتٍ خافتٍ متردد:

-"لا... ناقصة بعض الشيء، ثلاث عبوات."

ارتفع حاجبا تورك بغضبٍ مكتوم،

-"ثلاث عبوات؟! وبهذا الثمن الفاحش؟!"

الرجل النحيل بلع ريقه،

عيناه تلتفتان نحو طرف الزقاق كمن يخشى أن يسمع أحدهم:

-"لقد حدثت اضطرابات في الميناء، الجنود فتشوا السفن، وكادوا يعثرون على الحمولة، الخطر رفع الثمن، لا أحد يجرؤ على نقل الباقي."

تورك تقدّم خطوة واحدة فقط، خطوة كافية ليشعر الرجل بثقل وجوده، صوته صار أعمق، أكثر حدة:

-"أنا لم أسألك عن الخطر. أردت الكمية، لا الأعذار.

لو أنك أخبرتني قبلها، كنتُ زدتُك ذهباً فوق الذهب."

لكن الرجل هزّ رأسه بعنادٍ مرتجف:

- "الأمر لا يتعلق بالمال يا تورك...بل بالحياة نفسها. من حاولوا قبلي لم يعودوا.هذا كل ما استطعتُ أن أحصل عليه"

تورك صمت لحظة، ثم أدار رأسه قليلًا نحو نهاية الزقاق،

صوت قطٍ يعبث في القمامة، نسمة باردة تمرّ على وجهه.

رفع عينيه نحو الرجل وقال بهدوءٍ قاتل:

-"أحضر لي ضعفها."

الرجل صُدم، فتح فمه ليعترض، لكن تورك قاطعه ببرود:

-"وبعد ثلاثة أيام. لا أربعة. لا أعذار."

الرجل حاول أن يردّ،

-"سأحاول... لكن"

قاطعه تورك، متقدّمًا خطوة أخرى، حتى صارت وجوههما على مسافة نفسٍ واحد:

-"لا. لن تحاول. ستحضر.. "

لم ينتظر الرد، استدار، وبدأ يمشي بخطواتٍ ثابتة نحو نهاية الزقاق، صوت حذائه على الأرض الحجرية كان كنبضٍ باردٍ يبتعد شيئًا فشيئًا.

كان الأحد الثاني مختلفًا عن سابقه، إذ خيّم على القصر جوّ ثقيل كأن الحجارة نفسها تتنفس تعبًا.

في المطبخ الملكي، حيث تختلط رائحة اللحم المشوي ببخار الحساء الدافئ، كان سايمون، الطباخ الملكي، يُنهي إعداد الغداء الأخير قبل العطلة الأسبوعية...

رجل في الستين ربما، من عمره، ممتلئ قليلًا، وجهه دائري يشعّ دفئًا رغم التجاعيد التي حفرتها السنين الطويلة أمام أفران القصر.

صوته الجهوري يملأ المكان:

-"أضف الملح قليلًا يا جاكوب، الملك لا يحب الطعم الباهت!"

أغلق القدر الكبير، مسح العرق عن جبينه، وألقى نظرة جانبية على الجنود الواقفين قرب المدخل، يتبادلون الحديث وهم يرمقون الطعام بشهيةمكتومة..

بدأ سايمون بجمع أدواته: السكاكين، الملاعق، والأقمشة الملطخة ببقع الزيت.

كان يوم عطلته الأسبوعية، يومًا ينتظره كل مرة لا ليقضي وقتًا في الترفيه، بل ليزور المكان الوحيد الذي بقي له فيه حياة: قبر زوجته وابنته.

خرج من المطبخ وقد خفتت خلفه الأصوات. عبر ممرّات القصر الطويلة، حيث يرقص الغبار في أعمدة الضوء، حتى وصل إلى البوابة الخلفية.

في السوق القريب، توقّف عند بائعة الزهور العجوز ، امرأة عمياء تقريبًا، تبيع الورود من ذاكرة

ألوانها القديمة.

قال لها وهو يمدّ القطع النقدية:

-"كالعادة يا مارثا، باقة من الورد الأبيض، والقليل من الأحمر."

أجابت بصوت مرتجف:

-"رحمة الرب على من تضعها لهم، يا سايمون."

ابتسم لها بحزن وهز رأسه دون رد.

توجّه بعدها نحو المقبرة الشمالية، التي تمتد على مسافةٍ طويلة، يكسوها العشب البري والقبور الرمادية التي نُقشت عليها أسماء بالكاد تُقرأ.

الريح كانت تعصف، باردة، تحمل معها رائحة التراب الرطب وصوت أجراس بعيدة قادمة من الكنيسة القديمة.

السماء رمادية، والسحب تتدحرج مثل أمواج ثقيلة فوق التلال.

حين وصل، خلع قبعته احترامًا، وانحنى قليلًا أمام القبر المزدوج، حيث تنام زوجته وابنته معًا منذ سبع سنوات.

نزع الزهور الذابلة القديمة، ورتّب الجديدة مكانها، هامسًا بصوتٍ خافت كأنه صلاة:

-"لم أزل أعدُّ الأيام منذ رحيلكما... لقد فهمت شعورا قديما، لشخص قديم.. لا أدري عنه شيئا الآن"

لكن شيئًا ما لفت انتباهه...

زهرة واحدة حمراء، مربوطة بخيط أحمر دقيق، موضوعة بعناية فوق القبر.

تجمّد للحظة. لم يكن أحد يعلم مكان هذا القبر سوى هو، وبائعة الزهور التي لا ترى.

انحنى ببطء، تفحّص الخيط... كان مربوطًا بإحكام حول وردة لم يضعها هو.

رفع نظره، التفت يمينًا ويسارًا،

لا أحد. الريح فقط، تحرّك الأشجار..

مدّ يده، وفكّ الخيط، فوجد ورقة صغيرة مطويّة بإتقان أسفل الزهرة.

كانت الكلمات بخط حادّ متماوج:

-"احسب عدد الحصى، فهو عدد الأذرع، واتبع اتجاه الوردة، هناك ستجد الحقيقة."

اتسعت عيناه، شعر ببرودة في أطرافه.

-"ما هذا؟! "

نظر إلى الأرض حول القبر، فلاحظ صفًّا من الحصى البيضاء الصغيرة، عشر حبيبات مصطفّة بدقّة.

تذكّر كلمات الرسالة، فبدأ العدّ، ثم نظر باتجاه الوردة، التي كانت تميل نحو الشرق قليلًا، في تلك الجهة، لاحظ أن التراب بدا حديثًا بعض الشيء، كأنه أُعيد ردمه مؤخرًا.

تردّد...

لكن الفضول، قاتل، ومرعب...

انحنى، وأزاح التراب بيديه المرتجفتين، ثم استعمل سكين المطبخ الصغيرة التي يحتفظ بها دائمًا في جيبه...

لم تمر دقائق حتى اصطدم شيء معدني بيده. صندوق صغير، صدئ من الأطراف، لكنه محفوظ بعناية داخل كيس قماشي.

أخرجه بسرعة، نظر حوله مرة أخرى، لا أحد، كالعادة..

فتح الصندوق...

فوجد رسالة طويلة ملفوفة بخيط أسود، مختومة بشمع رمادي عليه حرف "V".

قرأ السطر الأول بصوت مرتعش:

-"إلى من يظن أنه وحده بين الأحياء، هذه البداية فقط..."

شهق، ثم أغلق الصندوق بسرعة وضمّه إلى صدره.

وقف يلهث، العرق يتصبب من جبينه رغم البرد القارس.

-"إ...إيرلان؟!"

قالها بصوت مرتجف بعد أن لاحظ الاسم في الرسالة.

- "هل يعقل أن يكون هو؟ بعد كل هذه السنوات..."

رفع عينيه إلى السماء الرمادية التي بدأت تمطر مطرًا خفيفًا،

ثم أخذ الصندوق تحت معطفه، وغادر المقبرة بخطوات ثقيلة.

كان وجهه شاحبًا، وعيناه لا تفارقان القبر.

وفي اللحظة التي ابتعد فيها، كان محتوى الرسالة طويلا، لكن، بما أن اسم صديقه القديم عليها، والأمر يتعلق به، فيجب أن تُمنح هذه الرسالة عناية فائقة..

الفصل السادس عشر:هل يليق به 2

كانت رائحة الحبر والبرد تعبق في الغرفة الصغيرة داخل القصر، حين أُغلقت الأبواب بإحكام، جلس الكابتن غريمور أمام فيساكا، متصلّب الملامح، عروق عنقه بارزة كأنها تتشبّث بعقله حتى لا ينفجر، الشمعة الوحيدة بينهما كانت تذوب ببطء، تمدّ ظلالًا راقصة على الجدران الخشبية، كأنها تحاول الإصغاء إلى ما يُقال.

قال فيساكا بصوت منخفض، هادئ لكنه مشبع بثقة غامضة:

-"لا يتقبل العقل ذلك، صحيح."

رفع غريمور رأسه فجأة، حاجباه مقطّبان، وصوته مبحوح من الغضب:

-"هل تدرك ما تقول يا فتى؟!"

ابتسم فيساكا، نصف ابتسامة أشبه بالسكين:

-"جدا."

ساد صمت ثقيل، لا يُسمع فيه إلا صفير الريح من خلف النافذة.

نظر الكابتن إليه طويلًا، كمن يحاول أن يخترق عقله بعينيه، ثم قال ببطء، مترددًا:

-"هل أنت... واثق من ذلك، كل شيء يعتمد على كلمات، وقرارات خارج تصرفك"

أجاب فيساكا بثباتٍ مذهل:

-"أنا لا أؤمن باليقين يا غريمور... لكني أعرف كبرياء الملك، وهو بالضبط ما سيهلكه."

ارتجف الكابتن للحظة، ثم عقد ذراعيه وقال بحدة:

-"أعتقد أن ستفشل، ليس لديك حل بديل، أليس كذلك؟ "

-"ربما لكنك تناقض نفسك، فأنت لم تتوقع الأمر، وقد حدث! "

-"وما مصلحتك أن تخبرني بهذا؟ أليس هذا خطأ فادحا"

أجابه فيساكا، أو آرثر، بنبرةٍ أكثر هدوءًا، وهو يشيح بنظره عن وجهه نحو اللهب الراقص:

-" أنت محق، لقد عرفت قصتي مع الثقة، لكنني أحيانا أصرح بأمور مثل هذه لأختبر الناس، ولاءهم، ومدى نجاح خططي البديلة..إنه تدريب!"

لم يعلّق غريمور. كانت عيناه تهربان من نظرة فيساكا كأنها مرآة تكشف ما في داخله، وقف فجأة، أمسك قبعته، وقال بصوتٍ حاول أن يبدو صارمًا لكنه ارتجف في نهايته:

-"هذا الحديث لم يحدث... لم يحدث شيء، مفهوم؟"

-"كما تشاء، كابتن."

قالها فيساكا مبتسمًا، وعاد يجلس ببطء بينما يطفئ الشمعة بإصبعه، فينطفئ الضوء كما تنطفئ الطمأنينة في قلب غريمور، الذي لم يغمض عينيه طوال الليل، كان عقله يدور كعجلة صدئة في عاصفة من الأفكار، وصوت الفتى يطنّ في أذنه:

"كبرياء الملك هو ما سيهلكه..."

خرج من بيته قبل طلوع الشمس، وجهه متعب، لحيته غير مرتبة، عيناه حمراوان كمن لم يرَ النوم منذ زمن..

وقد عيّن نائبه مكانه ، وخرج بنفسه متخفيًا، مرتديًا معطفًا رماديًا داكنًا...

قضى فيساكا ساعات في التنظيف، كعادته منذ وصوله إلى الميناء، يتسمتع برائحة ملك البحر، ونسيمه...

كانت سفن الشحن تتمايل على الموج، والحبال تصرخ وهي تُسحب ..

-"هاي، آرثر، تعال! "

أتى غريمور مصعوقا ونادى على آرثر..

-" لقد وجدتُ ما أخبرتني به، وكلفني ذلك خمسمائة قطعة ذهبية، ذلك الوغد آريس، يستحسن أن تنجح لتعيد إلي مالي أيها الفتى"

-" وجدت الغرفة!! "

-"نعم، كما أخبرتني، تمثال رأس الغزال.. "

كأن حملا ثقيلا أُزيح على ظهر فيساكا، قال وهو يبتسم:

-"لا تقلق أيها القائد، سأعيدها إليك، بطريقة أو بأخرى "

....

كان صدى الأجراس يتلاشى في أروقة الكاتدرائية الكبرى، حين اجتمع القساوسة والأساقفة حول المائدة المستديرة، تتلألأ فوقها الشموع الطويلة كأنها أرواح معلّقة بين السماء والأرض. الهواء مشبع برائحة البخور، وجدران القاعة تئن من ثقل الأسرار التي سُمعت عبر القرون. جلس القس فارين في الطرف البعيد، ساكنًا كصخرة، ووجهه يختفي نصفه في ظلّ اللهب. كان الصمت مهيبًا، والعيون تتجه إليه حين نهض ببطء، وعدّل ياقة ثوبه الكهنوتي، ثم قال بصوتٍ متزنٍ عميقٍ:

-"فليباركم الرب!

إخوتي، إن وجه الدين قد فُقد في هذه المدينة، الشوارع تغصّ بالضياع، والناس لم يعودوا يميزون بين صوت الصلاة وصوت الفوضى، لقد رأيتُ بعيني كيف أُهينت القيم التي جاهدنا لحمايتها، وكيف صار بيت الرب مهجورًا كقبرٍ نُسي اسمه..

ساد همس خافت بين المقاعد، وتبادل البعض النظرات.

تابع فارين، وقد ارتفع صوته قليلًا، وبريق الإيمان والدهاء يشتعلان في عينيه:

-" إن الدين، إن لم يكن سيفًا، صار قصباً في مهبّ الريح، وإذا ضاع، تضيع معه أعمدة الحضارة، لقد شهدتُ بعيني، وأذني، فوضى غير مسبوقة في المدينة، حيث تنتشر الأكاذيب والأقوايل والإشاعات، كلها، تنتقص من جلالة الملك، والهمسات تعلو، والفوضى وانهيار النظام، قد تُحكم على مملكتنا، إن لم نتحرك نحن، فمن يتحرك!

لهذا... أقترح أن نعيد الأوضاع إلى أصلها، بخطابٍ دينيٍّ عظيم، يسمعه الشعب والملك في آنٍ واحد...

يسمعه الشعب، ويسمع عن بطولات الملك، وإنجازاته، وضرورة اتباعه، ضد كل فوضى ..."

تبادل القساوسة الأنفاس المذعورة، وبعضهم شبك أصابعه بقلق، بينما رفع أحد الأساقفة حاجبيه بدهشة وقال:

-"إن هذا الأمر يتطلب موافقة ملكية، و من يتجرأ أن يخطب أمام الملك؟"

ابتسم فارين ابتسامة غامضة وقال بهدوءٍ:

-"أنتم من تختارون، وسيكون اختيار من يقوم بالخطاب أمرا سهلا، لكن الأصعب هو إقناع الملك، بمصلحته، ومصلحة المملكة، من واجبنا أن نُظهر للملك أننا معه، وأن صوت الكنيسة لا زال يُبارك سلطانه! "

ارتفع همس القاعة، أصوات تتجادل، أخرى تهمس بالدعاء، حتى نهض الأسقف الأعلى، الرجل الذي يرأس المجلس، وضرب بعصاه الخشبية على الأرض قائلاً بلهجة حاسمة:

-" ليكن تصويت! "

ساد صمت مطبق، كأن الزمن توقف ليستمع.

رفع رجل تلو آخر يده، ثم آخر... ثم آخر.

كان الضوء يتراقص على وجوههم بينما العدد يزداد، حتى قال الأسقف بصوتٍ جليلٍ وهو يضرب بعصاه مجددًا:

-" القرار... بالإجماع، قُبل طلبك، أيها القس.. "

يأتي إليه راهب بقربه، ويهمس في أذنه:

-" سنعقد اجتماعا مع الملك، وستمثلنا أنت! أيها القس فارين، فليباركك الرب! ".

في اليوم التالي، السبت، صدر بيان رسمي باسم الكنيسة يطالب بعقد اجتماع طارئ مع سيف الملك، القائد الأعلى للحرس الملكي، ورجل القصر الأقوى بعد الملك نفسه.

دخل فارين وسط مجموعة من رجال الدين إلى قاعة المجلس، التي يترأسها سيف الملك بثقةٍ هادئة.

جلس الجميع، وصمت المكان كأن الأنفاس حُبست فيه.

قال فارين بصوتٍ متزن:

-" نطالب بخطاب يسمه جلالة الملك قبل الشعب، نشكر فيه جلالته ونؤكد على تلاحم القصر والكنيسة، سيكون لذلك أثر عظيم في تهدئة الشارع، وغدا، مناسبة الأحد العظيمة، ستكون فرصة لا تعوض! "

حدّق فيه سيف الملك لحظة، ثم... انفجر ضاحكًا.

ضحكة جافة، ثقيلة، كسرت جلال المكان.

-"هل تعتقدون أن الأمر سيكون بتلك السهولة التي تخيلونها؟ "

أجابه فارين بابتسامة باردة:

-" لكنه سيبقى أفضل من الجلوس، وانتظار الفوضى وهي تملأ مدينتنا! "

نهض سيف الملك بعصبية، وقال بصرامة:

-"مرفوض. لا أحد يملي علينا ما نفعل، ولا متى نتكلم، هذا قرار يصدر من الملك نفسه، لا من اقتراحاتكم!

أنتم لا تدركون خطورة الأمر"

خرج فارين مدعيا الغضب،في وجه سيف الملك، دون أن ينبس بكلمة، تاركًا خلفه نظرات الحاضرين المشدوهة، وفي المساء، ذهب إلى الأسقف المسؤول عليه وقال له:

-" أريد أن ترفع طلبي إلى البابا شخصيًا، ليطلب اجتماعًا فوريا مع الملك. "

نظر إليه الأسقف بريبة:

-"البابا؟! هذا تصعيد خطير يا فارين...

-" بل خطوة نحو المجد، هل ستقبل بكلام هذا الفاسق الذي يبدو عليه أنه غير مؤمن أصلا!!

لقد قالها بنفسه، القرار يصدر من الملك،وليس هو،لقد خدمت الدين في مدينتي،وسأخدمه إلى الأبد...

ستكون أنت في مقدمة المجد، وسترتفع مكانتك عند الملك! "

كانت القاعة الملكية تلك الليلة تشبه معبدًا للذهب.

الثريات المعلقة تتدلى كشموسٍ صغيرةٍ، تذرّ الضوء على الأرض الرخامية الملساء التي تنعكس عليها أقدام الرجال بخطى ثقيلة.

جلست هيئة رجال الدين بملابسهم الطويلة المطرزة بالذهب والفضة، يتقدّمهم البابا أوسكار، شيخ هرم بعينين مطفأتين تشعّان دهاءً أكثر من النور.

وعلى العرش في نهاية القاعة جلس الملك سيفاليوس، متكئًا على مسند عرشه، يعبث بخاتمه الكبير وهو يحدّق إلى البعيد بملامح الملل الملكي التي تشبه الصبر على موعظة طويلة.

قال البابا بصوته الخافت أولًا، ثم ارتفع شيئًا فشيئًا حتى ترددت كلماته في القاعة:

-"جلالتكم، نحن جئنا اليوم نحمل فكرةً عظيمة.

إن المدينة تضطرب، والناس تائهون، نحتاج إلى كلمةٍ من الإيمان تُعيد الطمأنينة إلى قلوبهم...

خطابٌ دينيٌّ يُلقى على مسامع الشعب من قلب القصر، يمدّ الجسور بين التاج والمذبح"

رفع الملك حاجبًا، وصوت ساعته الرملية على الطاولة بدا أوضح من كلام البابا.

قال بفتور:

-" كلام جميل، لكن ليس جديدًا... من صاحب هذه الفكرة؟"

تردد البابا لحظةً، ثم قال بهدوءٍ كمن يسلّم مفتاحًا لخطرٍ محسوب:

-" القس فارين، جلالتك"

هنا تغيّر وجه الملك قليلا، جلس مستقيمًا على العرش، نظر بعينين فاحصتين، وقال ببطءٍ مريبٍ:

-"فارين؟... هذا الرجل؟ حسنًا، ليأتِ ويتحدث بنفسه"

بعد دقائق، فُتحت الأبواب الواسعة، ودخل القس فارين،

كان وجهه هادئًا على غير عادته، عيناه تشعّان بجرأة من يقترب من النار وهو يعرف كيف يخرج منها.

انحنى احترامًا، ثم رفع رأسه بثقة، وقال بصوتٍ رخيمٍ ملأ القاعة:

-" مولاي الملك سيفاليوس، يا من حملت سيف العدل بيمينك، وأقمت الممالك بيمين الربّ...

المدينة تخاف الظلام، لا لأنها تكرهه، بل لأنها فقدت النور.

الناس يحتاجون إلى كلمة من العرش، لا سيفًا جديدًا، بل صوتًا يعيد إليهم يقينهم بأن الملك معهم، وأن الكنيسة خلفه، وأن الرب فوقهما."

تبادل الأساقفة نظرات الإعجاب، حتى البابا أطرق برأسه إعجابًا ببلاغته.

تابع فارين، ونبرته تتصاعد كأنه يخطب في المذبح:

-" جلالتك... إن الخطاب لن يكون مديحًا، بل ميثاقًا بين الإيمان والسلطان.

كلمة تُقال باسمك، تُسكب في آذان الناس كرحمةٍ سماوية، فيسكن الخوف، ويستقيم القلب، وتُغلق أبواب الفتنة."

سكت لحظة، ثم رفع بصره مباشرة إلى الملك، وأضاف بصوتٍ عميقٍ فيه شيء من الحذر والذكاء:

-"وقد كلفنا سيف الملك بهذا الأمر... لكنه رفض، قائلاً إن الوقت لا يسمح."

ساد صمت ثقيل كأنه صدى السقوط من جرفٍ شاهق.

نظر الملك إلى البابا، ثم إلى الحاضرين واحدًا واحدًا، قبل أن يحدق في فارين بعينين يشتعلان غضبًا وكبرياء.

ضرب بيده على مسند العرش، فارتجّ صوته في القاعة:

-"رفض؟ سيف الملك يرفض أمرًا كهذا؟

من متى أصبح القائد يقرّر ما هو مناسب وما هو لا؟

استدعوه!! الآن! "

انحنى فارين برأسه بخضوعٍ ظاهر، ولم يمرّ وقت طويل حتى دوّى في القصر صوت الحرس الملكي:

-"سيف الملك إلى القاعة الكبرى!

الخطى الحديدية تتقاطع على أرضية الرخام، والأبواب تُفتح كأنها تصرخ من وطأة الغضب الملكي.

دخل سيف الملك، قامته الشاهقة لا تخفي التوتر في عينيه، وعباءته السوداء تلتفّ حوله كظلّ ثقيلٍ يجرّ معه صمته وصرامته.

في صدر القاعة جلس الملك الرابع، سيفاليوس، متجهمًا، تحيط به صفوف الأساقفة والقساوسة، وثريات القاعة تنثر الضوء على عرشه فيجعله يبدو كإلهٍ يحاكم عباده.

بادره الملك بصوتٍ مزلزلٍ كالرعد على الصخر:

-" كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ! كيف ترفض فكرةً صادرةً عن مجلس رجال الدين دون إذني؟"

رفع سيف الملك رأسه قليلًا، وصوته العميق خرج ثابتًا:

-" جلالتك، لم..."

لكن الملك قاطعه بصوتٍ حادٍ كالسيف:

-"اصمت!

لقد حذرتك سابقًا ألا تتخذ قرارًا دون علمي، ومع ذلك فعلت!"

دوّى صدى صوته بين الأعمدة العالية، حتى أن أحد القساوسة أطرق رأسه من الخوف.

الملك نهض واقفًا، خطواته على الرخام ثقيلة كأنها تضرب على صدر الزمن، اقترب من سيف الملك، حتى لم يعد بينهما سوى ذراع واحدة.

عيناه تقدحان نارًا، وصوته يهبط كالسوط:

-"لولا جلالة رجال الدين هنا، لأريتك من يكون الملك الرابع بحقّ!

أنت تظن أنك الدرع الحامي للملكة، أنا من صنع العرش بنفسه، أنا من صنعتك!!"

سيف الملك ظلّ صامتًا، يحدّق في الأرض، أنفاسه متقطعة، لكن يده التي على مقبض سيفه كانت ترتجف بخفةٍ خفيةٍ لم يلحظها إلا فارين، الذي راقب المشهد بعينٍ ساكنةٍ، وفكرٍ مشتعلٍ كالنار في الرماد.

الملك استدار فجأة نحو رجال الدين وقال:

-" سينعقد الاجتماع كما اتفقنا!

وستُجهَّز أنت خمسمائة جندي لحراسة الناس... أريد النظام، لا الأعذار!"

ثم التفت إليه مجددًا:

-"هل تعتقد أنني لا أعرف ما الذي تفكر به!

رغم أنك تعلم أن الجسر الملكي والجنود الملكيين صمام أمان القصر!

أما أنت... فانحنِ لهيبة التاج قبل أن تفقد حقّ حمل سيفك!"

انحنى سيف الملك ببطءٍ، ثقلُ الخزي في كتفيه كأن الجبال جثمت عليه، ثم قال بصوتٍ خافتٍ:

-" كما تأمر، جلالتك"

رفع الملك يده بحدة:

-" انصراف"

تراجع سيف الملك ببطء، خطواته تضرب الرخام بصدىٍ مكتومٍ، حتى اختفى خلف الأبواب الثقيلة التي أُغلقت كأنها ختمت قدرًا جديدًا.

ظلّ في القاعة صمتٌ عظيم، لا يُسمع فيه سوى خفق الشموع، وصوت جلوس الملك على عرشه مجددا...

الفصل السابع عشر:الأحد الثالث

في الأحد الثالث، قبل أن يشرق الفجر تمامًا، استيقظت ليريان على صوت أبواق الحراس النحاسية وهي تمزّق سكون المدينة كطعنة في قلب الحلم.

كانت تلك النغمات المعدنية تتردّد بين أبراج القصر العالية، ترتدّ على الجدران الحجرية كصدىٍ مقدّس، تعلن:

-" خطاب ديني! خطاب ديني! الآلاف مدعوون! "

فتحت عينيها مذعورة، وهي تضع يدها على صدرها المرهق من الأرق، تنظر نحو النافذة التي تتسرّب منها أول خيوط الفجر البارد.

صوت الأبواق لا يخطئه أحد... لقد عادوا لاستخدامها منذ سنوات فقط في الأحداث الكبرى عندما يعلن الملك شخصياً عن أمرٍ مصيري.

خرجت مسرعة من غرفتها، تلتفّ بوشاحٍ صوفيٍّ داكن، والبرد يلسع وجهها، لتجد أمها العجوز واقفة قرب الموقد، النار تشتعل ضعيفة بين الحطب الرطب.

قالت الأم وهي تمسح عينيها المتعبتين:

-"سمعتِ؟ الأبواق... !"

أجابت الابنة بصوتٍ منخفضٍ، فيه رجفة خوفٍ لا تعرف سببها:

- "يقولون إنه خطابٌ ديني كبير!"

وفي الخارج، كانت المدينة تستيقظ كأنها مخلوق واحد.

من السوق ارتفعت الصيحات:

-"كراسي للخطاب! كراسي من الخشب الجيد!"

ومن بين الأزقة جاء صوت الباعة:

-"ماء بارد لمن ينتظر منذ الفجر! ماء بارد!"

في حين امتلأت الحانات برجالٍ ثملين يهمسون، وكل واحد منهم يدّعي أنه يعرف ما سيُقال:

-"سيعلن الملك ضرائب جديدة، أراهن على ذلك!"

أما في الكنائس، فارتفعت التراتيل في نغمة واحدة:

"الرب يبارك الملك، من دمه خرج النور!"

كانت المدينة كلها تدور في دوامة واحدة من الترقب والرهبة، كأن السماء نفسها تحبس أنفاسها. الهواء باردٌ، والضوء رماديّ، والناس يسيرون نحو الساحة الكبرى كأنهم يُساقون إلى قدرٍ مجهول، بل إن الجنود كانوا يدخلوا حتى البيوت، ويأمرون الناس بتجهيز أنفسهم!

كانت الساحة الكبرى، قلب المدينة النابض، قد تحوّلت مع طلوع الشمس إلى بحرٍ من البشر.

صفوفٌ لا تنتهي من الرجال والنساء والأطفال، وجوههم متجهة نحو المنصّة التي ارتفعت في المركز كعرشٍ خشبيّ ضخمٍ يعلو الأرض وبأربعين أو خمسين ذراعا، مغطاة بستائر حريرية حمراء قانية تتماوج في الريح الباردة كألسنة لهبٍ راقصة.

الجنود ينتشرون كالنمل المنظّم بين الناس، دروعهم تلمع تحت ضوء الصباح، وحرابهم تلتقط خيوط الضوء فترسلها شراراتٍ بيضاء.

صوت صليل الحديد على الحجر يمتزج بنداءات الضباط:

-"صفّوا الصفوف! إلى الوراء أيها العامة! المكان الأمامي للنبلاء فقط!"

كانوا يرتبون مقاعد أمامية مصقولة، كل واحدةٍ منها تحمل شعار عائلة نبيلة: الأسد الذهبي، الغراب الفضي، الشمس المشتعلة...

وفي الوقت ذاته، تمرّ العربات الخشبية المحمّلة بالأخشاب والأقمشة والتماثيل الصغيرة، يجرّها رجالٌ تتصبّب من جباههم العرق، تتبعهم خدم القصر بأزيائهم البيضاء وهم يصرخون:

- "احذروا! الطريق! احذروا المنصة الملكية!"

من حولهم، الغبار يعلو في الهواء كضبابٍ دافئ، يمتزج برائحة الخشب الجديد، والدخان المتصاعد من الأفران القريبة حيث يخرج الخبز الطازج على صفائح سوداء ويُنادى عليه في الزوايا:

- "خبز الصباح! ساخنٌ كقلب الفجر!"

وكلما هبّت الريح من جهة القصر، حملت معها رائحة زهور الياسمين القادمة من حدائق النبلاء العالية، تلك الرائحة التي لا يشمها إلا من ذاق طعم البذخ يوماً.

اختلطت روائح المدينة ،الغبار، والخبز، والياسمين، لتخلق هواءً ثقيلاً، نابضاً، كأنه نَفَس المدينة ذاتها.

في الساحة، ارتفعت اللافتتان الكبيرتان على جانبي المنصة، مكتوب عليهما بخيوطٍ ذهبية لامعة:

- "باسم الربّ، الملك يتكلم."

-"الدين يحمي الملك،والملك يحمي المدينة."

عازفو الأبواق يصطفّون عند قاعدة المنصّة، وجنودٌ بخوذٍ مذهّبة يسدّون الطرق المؤدية إليها، بينما يقف النبلاء بملابسهم المطرّزة يتهامسون بابتساماتٍ مغلّفة بالغرور،

أما بين الجموع، فقد كان العامة يتزاحمون، يتدافعون، يصعدون فوق الصناديق والجدران المنخفضة علّهم يلمحون شيئاً من المنصّة.

الأطفال يبكون من الزحام، والنساء يرفعن أطراف أثوابهن كي لا تبتلّ بالوحل، والرجال يتبادلون نظراتٍ صامتة فيها خليطٌ من الفضول والخوف.

كانت المنصّة العملاقة لا تبعد سوى بضع مئات من الأمتار عن أسوار القصر الملكي، في نقطةٍ يمكن أن تُرى منها الساحة كلها كبحرٍ من الرؤوس المتماوجة، وتُسمع فيها أصوات الجماهير كما لو كانت أنفاساً واحدة ضخمة تتردّد في هواء المدينة.

من شرفة القصر العليا، كان الملك الرابع واقفاً، متكئاً على درابزينٍ رخامي أبيض، وخلفه وزراؤه وكبار مستشاريه، يتطلعون إلى الساحة التي تزدحم بالجنود والأعلام الحمراء واللافتات المذهبة.

الشمس انحنت قليلاً نحو الغرب، وملأت الأفق بلونٍ نحاسيٍّ مائلٍ إلى الدم، حين اقتربت لحظة الخطاب الملكي الديني الذي ستسمعه كل المدينة، لدرجة أن كثيرا من القساوسة في مواقع يكررون فيها كلام فارين!

لكن شيئاً صغيراً شدّ نظر الملك وسط هذا المشهد الفخم:

رجل بسيط، بثيابٍ ملطخةٍ بالطحين والزيت، يدفع عربة خشبية صغيرة مليئة بالأواني والأغطية المعدنية، يسير بهدوءٍ في الأسفل، يدخل إلى القصر، وكأنه لا يدري بما يجري حوله.

رفع الملك حاجبه مبتسماً وقال بنبرةٍ خفيفةٍ تسللت فيها دهشةٌ ناعمة:

-"أليس هذا... طباخ القصر؟ ما الذي يفعله هنا؟"

انحنى أحد الحراس وقال:

-"يبدو كذلك يا مولاي، إنه الطباخ سايمون، لعله لم يُبلّغ بأمر الخطاب اليوم."

ضحك الملك بصوتٍ منخفضٍ جعل وزراءه يتبادلون النظرات المتوترة، ثم قال وهو يشير بإصبعه إلى الأسفل:

-"نادوه، دعوه يصعد إلى القصر. دعونا نرى كيف يبدو الطاهي حين يجد نفسه في مجلس الملوك."

أسرع المرسول ينزل السلالم الحجرية نحو الساحة، يخترق صفوف الحراس والجنود حتى بلغ سايمون الذي كان منهمكًا في دفع عربته، والعرق يتصبّب من جبينه.

اقترب منه المرسول الملكي وقال بنبرةٍ حازمة ممزوجة بشيءٍ من الاحترام:

-"سيدي، الملك يطلبك فورًا إلى القصر. يريد أن تحضر الخطاب معه."

تجمّد سايمون في مكانه، عيناه اتسعتا كمن لم يفهم تمامًا ما سمع.

ثم ابتسم ابتسامةً حائرة وقال وهو يمسح جبينه بمنديله القديم:

-"الملك؟ يريدني أنا؟ حسناً... حسناً، قل له إنني... سألحق به بعد لحظات، قل له أيضًا أن وجبةً شهية أحضّرها خصيصًا له. سيأكلها وهو يسمع الخطاب!"

ثم أكمل بدفع عربته بخفةٍ نحو بوابة القصر الجانبية المؤدية إلى المطبخ الملكي، حيث بدأ صرير العجلات يتلاشى بين الممرات الرخامية الطويلة.

وقف المرسول لحظةً حائرًا، ثم صعد ليبلّغ الملك بردّ الطباخ، فقال وهو ينحني:

-"مولاي، قال إنه سيأتي بعد لحظات... وهو يحضّر وجبةً شهية لجلالتكم."

ارتفعت ضحكة الملك عالية، ناعمة ولكن فيها غموض:

- "وجبة شهية؟ في مثل هذا الوقت؟ حسناً، ليحضّرها... ولينضم إليّ بعد أن يُنهيها. لحتى الطهاة، يا وزرائي، يجب أن يسمعوا كيف يُطبَخ الخطاب قبل أن يُقدَّم للشعب."

ضحك الوزراء بخفوتٍ، لكن نظراتهم كانت قلقة؛

فالملك حين يبتسم بهذا الشكل، يكون في صدره شيء لا يُعرَف أهو سخرية... أم نية؟

وفي الأسفل، في الممر الحجري المؤدي إلى المطبخ، كان سايمون يفتح أبواب عربته ببطء، يخرج منها أوانيه وأغطيتها، وفي عينيه وميضٌ غريب...

كأن تلك الوجبة التي يعدّها، لم تكن مجرد طعام.

وصل سايمون إلى المطبخ، أغلق الباب، وتعلو على وجهه ملامح سعادة، وحزن...

أخرج تلك الزيوت من الصناديق، إنها نفسها، التي أحضرها له تورك، صديق صديقه القديم إيرلان، وبدأ يسكبها في كل مكان في المطبخ..

..........في الليلة الماضية..........

-" أريد ألفي جندي حول الناس"

-"سيدي، لكن الملك أمر بخمسمائة جندي فقط! سنحتاج الباقي لحراسة الحدود! "

يمسك سيف الملك الضابط من ثيابه:

-"قلت، ألفا جندي، الآن، ولتصرحوا بخمسمائة، ولتخفوا البقية بين الناس، اجعلوهم أشباحا، لا أهتم كيف ستفعلون!!...

لن يصمد الناس أمام هذا العدد من الجنود المسلحين، ستكون هذه الخطة لأي احتمال وارد أسوء.. "

....

كان أدريان يشعر بغرابة شديدة، بوجه ذبل من الحزن، وتغيرت ملامحه الطفولية كثيرا، وقطع رجاء الأمل من أخيه، الذي لا يعلم عنه شيئا، ولم يكن معه اليوم ليدافع عنه عندما أجبره الجندي على الإتيان إلى هذه الساحة، والاستماع إلى إنجازات الملك الوهمية...

مالت الشمس قليلًا نحو الغروب، كأنها تتلكأ في رحلتها الأخيرة نحو الأفق، حمراء شاحبة، تحاول أن تُطل للمرة الأخيرة على مدينة تتنفس القلق.

الظلال امتدت بين الأبنية العالية كأفاعٍ سوداء تزحف على الجدران، بينما الساحة الكبرى كانت تغلي بالبشر، بحر من الرؤوس المتلاصقة، العيون كلها معلّقة على المنصة الخشبية الضخمة التي تلمع أقمشتها الحريرية بلونٍ قرمزيٍّ داكن، يتماوج مع كل نسمة قادمة من جهة البحر.

ارتفع نداء الحراس من أسفل الدرجات الحجرية:

- "افتحوا الطريق! القسّ فارين يصعد!"

تفرّقت الجموع ببطء، وهمهمات المئات تمتزج بصوت الدروع الحديدية والحراب المصقولة، حتى ظهر فارين بملابسه السوداء الثقيلة، وجهه متعب كمن حمل همّ مدينة كاملة فوق كتفيه.

كانت خطواته بطيئة، ثابتة، وعيناه تتجهان إلى الأعلى حيث تنتظره المنصة، حيث يقف رجال الدين في صفٍّ واحد، وإلى يمينهم المقاعد الملكية المحفوظة للنبلاء، بينما يراقب الملك من شرفته العالية في القصر المطل على الساحة، وخلفه سيف الملك واقفٌ في صمتٍ بارد، عيناه تراقبان المشهد بتوجّس.

اعترضه جنديان عند مدخل الدرج، أحدهما كان شابًا يبدو عليه الارتباك، والآخر صلب النظرة، فحصا ما في يديه.

قال الأول بصوتٍ رسميٍّ:

-"بأمر الملك، لا يُسمح لأحد بالصعود حاملًا شيئًا دون تفتيش."

رفع فارين كتابه المقدّس بين يديه وقال بهدوءٍ نافذ:

- "هذا ليس شيئًا، هذا كلام الرب، ولن يُمسّ إلا بيديّ أنا."

تبادل الجنديان نظرةً سريعة، أحدهما همّ بالاعتراض، لكن الآخر قال بخفوت:

- "دعه، إنه قسّ المدينة."

ومع ذلك، تقدّما خلفه، يصعدان الدرجات خلفه خطوة بخطوة، كما لو كانا يراقبان كل حركة تصدر منه.

وحين بلغ القمة، انكشفت له الساحة كلّها...

منظرٌ مهيبٌ لم يره في حياته.

البشر كالأمواج، لا يُرى في الأفق سوى وجوهٍ تنتظر كلمة، أو وعدًا، أو معجزة.

الأعلام ترتفع فوق الرؤوس، الحبال المشدودة تعلّق عليها اللافتات التي كتب عليها "الملك نعمة الرب"، أصوات الباعة، وصياح الأطفال، وهمسات النبلاء الذين جلسوا على مقاعدهم المذهّبة في المقدّمة.

أما الهواء فكان مشبعًا بروائح مختلطة: البخور، الغبار، والخبز الطازج من المخابز القريبة.

وقف فارين أمام المنصة الخشبية، ارتجف صوته للحظة حين أمسك الكتاب بكلتا يديه، ثم رفعه عاليًا نحو الناس، وصمت الجمع شيئًا فشيئًا، حتى لم يبق سوى صوت الريح وهي تعبث بالأقمشة الحريرية فوق رأسه.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال بصوتٍ ملأ الساحة كلها:

الفصل الثامن عشر والأخير: معجزة الأقدار

-أيها الشعب المبارك،

أيها المؤمنون بنور الربّ وعدله، يا أبناء الأرض التي لم تعرف إلا الصبر والطاعة والرجاء...

نقف اليوم أمام عهدٍ من عهود النور، عهدٍ نُسجت صفحاته بدماء الأبطال وصلوات الأمهات وبكاء اليتامى، عهدٍ اسمه محفور في ذاكرة كل طفلٍ وشيخٍ ومقاتلٍ تحت شمس هذه المملكة:

عهد الملك سيفاليوس الرابع!

هو الملك الذي أوقف زحف الممالك حين كاد الليل يبتلع مدننا،هو الذي جمع الممالك المتنازعة تحت رايةٍ واحدةٍ، وقال: "لن تُقسم الأرض التي قدّسها الربّ!"

هو الذي حمل السيف في معركة الوادي الأحمر حين فرّ الجميع، وبقي وحده في الوحل، يواجه الرعب كأنه ولد من رحم النار.

كانت الأرض ترتجف تحته، والسماء تصرخ بالرعد، لكن الملك لم يتراجع، بل رفع سيفه إلى السماء وصاح: "إن الربّ معي، فمن عليَّ؟!"

وفي تلك اللحظة، انكسر العدوّ، واشتعلت الأرض بلهيب النصر، وكان ذلك يومًا من أيام المجد الذي خُطّ بحروفٍ من دمٍ وإيمانٍ وعظمةٍ خالدة!....."

خطاب طويل جدا، استغرق فيه ساعة ونصف، يكرر فارين أغلب العبارات فيه، والقساوسة يكررون ما يكرر،

كان الغروب يزحف ببطء، يلون سماء المدينة بلونٍ نحاسيٍّ مائلٍ إلى الدم، والهواء محمَّلٌ برائحة الغبار والعرق والخوف، كأن الأرض نفسها تحبس أنفاسها.

المنصة الخشبية المذهّبة تلمع بأشعة الشمس الأخيرة، والجنود مصطفّون كجدار من الحديد، والملك في شرفته البعيدة يراقب، وعيناه نصف مغلقتين، كمن يشاهد مشهدًا مقدّرًا لا يستطيع تغييره.

بدأ الناس يحيّون الملك بصيحات تهتزّ لها الساحة:

-"يحيا سيفاليوس الرابع! يحيا الملك العظيم!

ارتفعت الأعلام، وارتجّت الطبول، وارتفعت أصوات الكهنة بالتراتيل، والسماء امتلأت بطيور بيضاء أفلتت من أقفاصها في لحظة واحدة.

جلس فارين للحظةٍ، متصبّبًا عرقًا، كأنّ جسده لم يعد يحتمل تلك المهابة التي خلقها بنفسه، ثم رفع قنينة صغيرة من الماء، شرب منها رشفة، ومسح فمه بكمّه.

ثم، بصمتٍ مهيب، مدّ يده نحو الكتاب المقدّس الذي وضعه أمامه على المنضدة.

أمسكه، رفعه عاليًا، ونظره يجوب الحشود.

سكت الجميع.

حتى الريح توقفت.

فتح الكتاب ببطء... كان الورق يئنّ من بين أصابعه.

ثم فجأة... سحب خنجرًا فضيًا قصيرًا كان يخفيه بين الصفحات!

لم يصدق أحد ما رأى.

الوقت تجمّد.

في رمشة عينٍ، أمسك الجندي الواقف بجانبه من عنقه، ووضع الخنجر على رقبته.

صرخ الناس، صرخة واحدة، مدوّية، ترددت بين الأبراج والبيوت، أطفال بكوا، نساء صرخوا، رجال تجمّدوا في أماكنهم، الجنود في الخلف شدّوا سيوفهم، لكن صوت فارين اخترق الصخب كالسيف:

- "تراجعوا!

ثم التفت إلى الحارس الثاني وقال بصوتٍ كالرعد:

-" انسحب!

تردّد الحارس، فنظر إليه الحارس الأول بعينٍ يائسة وقال له هامسًا:

- "افعل ما يقول..."

تراجع الحارس الثاني ببطءٍ، يجرّ خطواته على الخشب، ووجوه الناس تتابع المشهد وكأنها تشاهد سقوط نجمٍ من السماء، أمر فارين الجندي بالانبطاح أرضا، حتى يقوم فارين بتقييده وسط أنظار الجميع، والملك وحاشيته في حالة صدمة، والقساوسة الذين يكررون كلام فارين، اتفقوا على صوت واحد:

-"لدينا مشكلة، جلالتك!! "

-"أيها الشعب! أترون ما آل إليه حالنا؟ أترون كيف تُكمم الأفواه باسم الملك والرب؟!

إنها فرصتكم الوحيدة، في تاريخكم كله!!

إن تثوروا اليوم، لن تكسروا الأغلال عليك أبدا!

أنتم القوة أيها الناس!

القصر الملكي مُخترق! هيا أيها الناس! اهجموا على القصر!! "

دوّى انفجار هائل من جهة القصر!

من جهة المطبخ الملكي تحديدًا، ارتفعت كرة من النار، حمراء كالجحيم، تبعتها موجة صاعقة من

الدخان واللهيب.

اهتزّت نوافذ القصر، تطاير الزجاج، وتساقطت شظايا الخشب المحترق فوق الساحة كالمطر.

تراجع الناس مرعوبين، وارتفعت صيحات:

ـ "انفجار!!"

ـ "القصر يحترق!!"

ـ "الملك!!"

من بعيد، كان الملك سيفاليوس الرابع قد نهض من مجلسه، وعيناه لا تصدّقان المشهد؛ ألسنة النار ترتفع من قلب قصره!

الوزراء يتراكضون حوله، أحدهم يصرخ:

ـ "مولاي! علينا أن نغادر القصر فورًا!"

لكن الملك ظلّ واقفًا، يحدّق في الأفق..

دوّى الانفجار الثاني فاهتزّ القصر بأكمله كما لو أن الأرض انقلبت تحت أساساته.

تساقطت قطع الجصّ من السقف، وارتجّت الثريات، وانكفأت الكؤوس على الأرض فاختلط شراب النبيذ برائحة الحريق.

انطلق سيف الملك من الممرّ الحجري كالعاصفة، صوته يجلجل بين الجدران:

-"إلى المطبخ! الآن!"

كان اللهيب يلتهم الممرات، والسخام يصعد في الهواء كسحابةٍ سوداء.

حين وصل إلى المطبخ الملكي، وجد الجدران تشتعل بلونٍ نحاسيٍّ متوحّش، القدور تغلي فوق الأرض، والهواء نفسه يحترق.

وبين الدخان والنار...

رآه.

سايمون، الطباخ العجوز، ، وجهه يضيء بلون اللهب، وفي عينيه تلك الابتسامة الغامضة، الهادئة، كأنه حضر ليشاهد النهاية التي خطّها بيديه.

صرخ سيف الملك، والشرر يتطاير حوله:

-"أيها الخائن! "

ردّ عليه صوت الطباخ من خلف الدخان، هادئًا كصوتٍ يخرج من قبرٍ مفتوح:

-"اليوم ستذهبون إلى الجحيم! "

أسيف الملك، وأخرج سيفه كوميضٍ من الفولاذ، لكن الحرارة أجبرته على التراجع.

ارتدّ إلى الممر، وصرخ بأعلى صوته:

-"أيها الملك! إنذار أحمر! الحشد قادم! سيتم إجلاؤك فورًا لحمايتك!"

دوى صوته في أروقة القصر، وركض الحراس من كل اتجاه، دروعهم تصطدم ببعضها، والسيوف تلمع كألسنة برقٍ مضطربة.

كان الملك سيفاليوس الرابع ينتظر في قاعة العرش، متيبّس الملامح، رماد الحرائق يتساقط فوق عباءته الموشّاة بالذهب.

اقترب منه سيف الملك، ركع على ركبةٍ واحدة وقال:

-"مولاي، لم يعد هناك وقت، النار في المطبخ، والجموع تزحف نحو الأسوار!"

أشار الملك برأسه بثقلٍ لا يليق إلا بالملوك حين يواجهون النهاية، وقال بصوتٍ مبحوحٍ خافت:

-"إلى أين؟"

أجابه سيف الملك وهو يسحب ذراع الملك بيده المغطاة بالرماد:

-"الممرات السريّة، مولاي! إلى غرفة المطبخ القديمة!"

انطلقوا مسرعين عبر الأروقة الحجرية، تتبعهم صيحات الجنود ووقع الخطى المتسارعة.

كانت أصوات الناس من الخارج كهدير البحر، حشود تصرخ وتدق الأبواب الحديدية للميدان، يقودهم فارين بخطاباته، لكنه لم يكن يتوقع ذلك العدد الكبير من الجنود غير المصرح بهم، والذي أحاطوا بالناس بالسيوف من كل الجهات، إلا من جهة القصر، حيث أمر سيف الملك أن يكون الجنود في الجهة الثانية، جهة القصر، لكي يكون الجسر حصانة تامة لهم!

وصلوا إلى الغرفة القديمة، تلك التي طمرها الغبار والنسيان، حيث رائحة الفحم البارد والرماد القديم.

فتح سيف الملك الباب الخشبي الصدئ، فظهر خلفه مشهدٌ غريب:

-"سايمون كان هناك... مجددًا.

يقف أمام جدارٍ حجريٍّ مفتوح، وقد كشف عن نفقٍ سري، سلمٌ حلزونيٌّ يهبط نحو باطن الأرض.

أنار الشعلة، التفت إليهم، وقال بابتسامةٍ لا تشبه ابتسامات البشر:

-"أتمنى أن تعجبك الوجبة، أيها الملك..."

تجمّد الهواء للحظة.

اندفع سيف الملك نحوه، صرخة الحرب تمزّق صمته:

-"خائن!!!"

وأمسك خنجرا ثم رماه باتجاه سايمون، والذي أصابه غي ساقه، فاندفع الدم القاني يسيل على الأرض الحجرية، لكن سايمون لم يصرخ، لم يتأوه...

بل ضحك.

ضحكة قصيرة، خانقة، كأنها صدى جرسٍ من جهنم.

ثمّ رفع يده الأخيرة نحو باب النفق ودفعه بقوة فانغلق بصوتٍ عميق، كإغلاق قبرٍ جديد.

وقف سيف الملك يضرب الجدار بقبضته، يصرخ:

-"افتح! سايمون!! افتح!!"

لكن لم يكن هناك جواب.

فقط الحريق يزحف، والملك خلفه يلهث، والدخان يتكاثف كستارٍ أسود على كل المجد القديم...

لكن صوت سيف الملك يعلو:

-"أنتم، الحراس، اكسروا الباب، وأدخلوا الملك، هيا!! !

دفع الحراس الباب الحجري بأكتافهم حتى ارتجّ، صريره الخشن يتردد في أرجاء القاعة المظلمة كأن القصر نفسه يئنّ من الألم.

أخيرًا، انفتح النفق... فاندفع هواء بارد رطب من جوف الأرض، يحمل رائحة الحجر المبتل والعفن القديم.

أشار سيف الملك للحراس بصوتٍ حادٍّ كسيفٍ يُشهر:

-"أنزلوه! أنزلوه فورًا! واذهبوا في طريق مستقيم مباشر"

تقدّم ثلاثة من الحراس بخطى ثقيلة، دروعهم تصطكّ وهم يحملون الملك سيفاليوس الذي بدا شاحب الوجه، بين وعيٍ وغيبوبة.

كانت النار تقترب من القاعة، والجدران تصدر أصوات تشققٍ كأنها تتنفس لآخر مرة.

مدّ أحد الحراس يده نحو فم الملك:

- "مولاي، تحمّل قليلًا، النفق آمن..."

لكن الملك فتح عينيه نصف فتحة، نظر إلى سيف الملك وقال بصوتٍ متعبٍ متهدّج:

-"احمِ المملكة...! "

ارتجف فكه، فأومأ سيف الملك باحترامٍ عسكري صارم، وقال بخشوعٍ عميق:

-"أعدك."

دفع الحراس الملك إلى النفق، وأغلقوا البوابة خلفه بآلية حديدية مخفية، بينما بدأ الدخان يتكاثف حتى غطّى الممرات بأكملها.

عندها استدار سيف الملك، عباءته السوداء ترفرف مع تيارات الهواء الحار، وانطلق نحو البوابة الكبرى للقصر.

كانت أصوات الجنود تتعالى: صراخ، ارتطام، لهاث، أوامر مختلطة بين الفوضى والنار.

وحين وصل إلى الساحة الداخلية، وقف فوق السلالم العالية وصرخ بكل ما بقي في صدره من هواء:

-"ارفعوا الجسر!! "

اهتزّت الأبراج الحجرية مع صدى صوته، وأسرع الجنود نحو الرافعات الضخمة، السلاسل المعدنية تتأوّه، والأخشاب تصدر صريرًا وهي تُرفع ببطء.

بينما كانت النار تلوّن السماء بلون الغروب الدامي، أمر سيف الملك:

- "فليقف السيافون في الطليعة! صفّان متقابلان! والرماة... من خلفهم، على الأسوار!"

تردّد صدى الأوامر بين الأبراج، والجنود يتوزّعون بخطى حديدية، العرق يختلط بالرماد على وجوههم، عيونهم تلمع بحدّة البقاء.

لكن سيف الملك لم يتوقف.

عاد يجري عبر الرواق الجنوبي، والحرارة تكوي جلده من القرب، بينما اللهب يتسلّق الأعمدة كأفعى حمراء.

دخل إلى قاعة الوزراء، حيث كان الوزراء والشرفاء يهرعون في ذعر، أحدهم يحمل وثائق، وآخر يصيح:

- "كل شيء احترق! الخزانة! المراسيم!"

صرخ فيهم سيف الملك، وصوته يعلو فوق الهلع:

- "اتركوا الأوراق! الأرواح أولى!"

أمسك بذراع أحد الوزراء الذي سقط تحت عمود محترق، ورفعه بقوة، ثم التفت إلى اثنين من الجنود وقال:

-"خذوه إلى الساحة الخلفية، إلى عربات الإخلاء!"

الوزراء يتدافعون، والنيران تشتعل خلفهم كجدار من جحيم، وسيف الملك يصرخ ثانيةً، وجهه يقطر عرقًا وسخامًا:

- "لن يسقط القصر ونحن أحياء! هيااااا!"

كان الهواء في النفق خانقًا، ثقيلًا كأنه يحمل أسرار مئات السنين، تتدلى جذور الأشجار من السقف الحجري وتقطر منها مياه باردة، كل قطرة تسقط فتحدث صدى طويلًا كأنها تطرق باب الجحيم...

بعدما نزع الخنجر المغروس في ساقه ولف عليه بقطعة قماش، كان سايمون يحني ظهره العريض وهو يزحف في الممر الضيق، أنفاسه تتصاعد بخارًا مع كل زفرة، والعرق يختلط بالغبار على وجهه. بيده اليمنى شمعة صغيرة، تترنح ألسنتها مع كل ارتجافة من يده.

همس لنفسه بصوتٍ خافتٍ كأنما يهرب من سماع صدى كلماته:

-"واحد... اثنان... ثلاثة... أربعة..."

توقف، وضع يده على الجدار الحجري الخشن.

-"هنا..."

مد يده إلى كيسه الجلدي وأخرج أداة حديدية صغيرة، بدأ يحفر في الجدار السفلي، بصوت احتكاكٍ حادٍّ يشبه صرير الأسنان. دقائق مرّت، ثم ارتطم المعدن بشيءٍ أجوف.

ابتسم، و همس:

-"وجدتك..."

أزاح التراب بيديه حتى ظهر غطاء حجري دائري صغير، مرسوم عليه نقش غامض على شكل أفعى تبتلع ذيلها.

أمسكه بكلتا يديه وسحبه، فصدر صوت طحنٍ حجري مزلزل، واندفعت رائحة عطنٍ أقوى من قبل.

دخل عبر الفتحة، لكنه ترك الغطاء مفتوحًا خلفه، عن قصد.

تابع سيره في النفق الثاني، الذي كان أكثر رطوبة وضيقًا، وكلما تقدم، ازداد ارتجاف يده. كانت أصوات البحر تلوح خافتة من بعيد... صفير الريح عبر الممرات الملتوية، وصوت هدير

المياه يعلو تدريجيًا.

وقف قليلًا، كأنه يتردد.

-"لقد مرت... سنين طويلة جدا... وما زال هذا المكان حيًا."

واصل الزحف بسرعة أكبر، قلبه يخفق، كل خطوة كانت تنبض مع الزمن نفسه.

حتى وصل إلى جدار أخير، فيه حجر صغير بارز...

لمس الحجر فاهتزّ، وسمع صوتًا داخليًا كأنه تنهيدة نفق قديم يفتح صدره لأول مرة منذ زمن بعيد.

رفع الغطاء الأخير ببطء...

دفعة من الهواء المالح والبارد ضربت وجهه، ومعها صوت الأمواج يعلو واضحًا الآن.

خرج إلى غرفة صغيرة دائرية مضاءة بمصباح زيتي واحد، تتدلّى جلود بحرية على الجدران، وعلى الطاولة أمامه خرائط ممزقة وصناديق معدنية مغلقة.

في ركن الغرفة، وقف رجلٌ مسنّ بلحية رمادية كثيفة، وإلى جواره شاب في بداية العشرينات، عيناه حادتان كالسيوف، يحمل خنجراً صغيرًا يلمع في الضوء الخافت.

رفع الشاب نظره نحوه وابتسم ابتسامة خفيفة، فيها مزيج من الترحيب والدهاء، ثم قال:

-"مرحبًا بك، سايمون، أيها الصديق القديم... لقد كنا بانتظارك."

في عمق النفق المظلم، كانت خطوات الملك تتردد بين الجدران الحجرية كنبضٍ ثقيلٍ يختلط بصوت أنفاس الحراس الثلاثة الذين يسيرون خلفه.

كان الضوء الخافت المنبعث من المشاعل يرتجف مع كل زفير، يرسم ظلالاً طويلة متشابكة على الجدران الرطبة، وكأنها أرواح الملوك القدامى تراقبهم في صمتٍ مهيب.

توقف الملك فجأة.

حدّق إلى الأمام، نحو فتحةٍ جانبيةٍ صغيرة، غطاؤها الحجري مائل كأن أحدهم استعجل الخروج منها. انحنى قليلاً، لمس الحافة الباردة بيده، ثم قال بصوتٍ متحشرج لكنه حازم:

-"لقد مرّ من هنا... سايمون!"

تبادل الحارسان النظرات، لكن الملك أكمل بنبرةٍ غاضبةٍ تفيض بالعزم:

-"لن أسمح له أن يفلت دون حساب. أنتَ!"

وأشار إلى أحد الحراس،

-"اتبع أثره عبر هذا النفق، أمهله الموت، لكن لا تُمهله الفرار! افعل ما يجب فعله، باسم الملك!"

ضرب الحارس صدره بقبضته وقال:

-"أمرك مولاي"

ثم اندفع نحو الظلام، تبتلعه الأنفاس الحارّة والضوء المرتجف.

أما الملك، فقد استدار نحو الحارسين المتبقيين، وقال بصوتٍ أكثر هدوءاً هذه المرة، يحمل شيئاً من الحزن الممزوج بالرهبة:

-"فلنواصل... إن النور لم يعد في القصر، بل هنا، في أعماق الأرض.

تقدم الثلاثة، بخطواتٍ متسارعة، عبر الممر الضيق الذي أخذ يتفرّع ويتلوى كأمعاء مدينةٍ غارقة.

كانت رائحة الرطوبة والحديد تتكاثف في صدورهم، حتى لاح أمامهم بابٌ معدني ضخم مطبوع عليه ختم المملكة القديم.

وصل الجندي الحارس إلى الغرفة، حيث ينتظر الثلاثة، الذين أمسكوا به، وقيدوه، ثم حمل فيساكا سيفه، ودخل هو وسايمون، والكابتن، إلى النفق...

الزقاقُ كان يئنّ من ضيق الهواء، والرطوبة تلتصق بالجلد كفيلمٍ بارد، حين رَكض الجنديُّ الحارسُ الذي أرسله الملكُ صوب فتحةٍ جانبيةٍ في القبو.

دفع البابَ الخشبيَّ المائلَ فدخل، لكنّ الاستقبالَ لم يكن ترحيبًا؛ ثلاثةٌ كانوا هناك، عيونُهم كالحديد، وجوهٌ مقطّعة من الجوع والقرار، نهضوا في وجهه كحائطٍ من الظلال.

لم يكن هناك تردّد.

سحبوه بقوّةٍ، ربطوا يديه خلف ظهره بحبالٍ سميكة، وصمتوهُ عنوةً.

صرخةٌ مكتومة حاولت الخروج من حلقه لكنّها خُنقت بالحبل والظلام، وأُلقى على الأرض كقطعةٍ من ثيابٍ باردة.

فيساكا لم يبتسم؛ قبض على سيفه بخشونةٍ وكأنه يستدعي ذاكرةَ حديدٍ قديمة، والكابتن غريمور أخذ قوسه وفتّل سهماً ببطءٍ صارم، ومن ورائهما دخل سايمون، طباخ القصر بوجهٍ رماديٍّ، نور المشعل يرسم حوله هالةً من السرّ والكراهية.

قادهم سايمون عبر النفق، خطواتُهم تقطع صلات الرطوبة بالحجر، وصوتُ قطرات الماء يضرب القاع كنبضٍ متقطّع.

الطريقُ التويّجيةُ تحت الأرض تلمع أحيانًا ببقايا معادنٍ قديمة، وخرائطُ ممزّقةٌ محمولةٌ بعصاويةٍ على الجدار تُشير إلى أشياءٍ لم تعد تُقرأ.

ارتفعت دقات قلوبهم مع كل خطوة، حتى ظهرت سلالمُ تصعد إلى غرفةٍ صغيرةٍ موصدةٍ، هناك حيث ينتظر الملك.

فتح سايمون البابَ الأخيرَ بصمتٍ؛ دخلوها فارتعش الهواء من حولهم كما لو أنّه يحمل صدى ألف همسةٍ مكتومة.

كان المشهدُ منفراً: الملكُ جالسُ على مقعدٍ منخفضٍ، ثيابُه مُلطّخةٌ بالرماد، ووصيفوه يحيطون به بوجوهٍ من طينٍ وذهب..

لكنّ أعينهم اتّسعت حين دخلت فرقةٌ من المتمرّدينِ في عمقِ القصر، ليسوا أناسا عاديّين.

توقفِ الزمنُ لوهلة، ووقف سيفاليوس كصلبٍ متحجّرٍ يحدّقُ في الداخل الغاضب.

رفرفت أنفاس الحراس، وقطعت سحبُ الدخانِ حديث الهواء، بينما فيساكا رفع سيفه بلا ترددٍ، شفرةُ الحديد تلتقط ما تبقّى من نورٍ كأنه سهمٌ مخصّصٌ لمنحه نهاية.

تراكمت الكلمات على شفتيَه ،ثم انفجرت كقنبلةٍ حاضرة:

-"سَيَندَثِرُ حكمك! سيزولُ سلطانك، أيها الوغدُ الطاغية!"

....

الليلُ انحدرَ على العاصمة كعباءةٍ سوداءَ ثقيلة، والسماءُ مكتظةٌ بدخانٍ رماديٍّ صاعدٍ من نيران القصر البعيد.

الريحُ الباردة كانت تمرّ بين دروع الجنود، تُصدر صفيراً كأنّها همساتُ الموت نفسه، بينما صفوفُ الجنود تصطفّ أمام الجسر الملكي، في مواجهة بحرٍ متلاطمٍ من الناس الغاضبين.

القمر الأحدب، و المشاعل، والنيران تُضيء وجوه الجنود من جهة، وتلقي على وجوه الشعب من الجهة الأخرى ظلالاً غاضبة، وجوهاً نصفَ خفيةٍ ونصفَ مضاءة، فيها الرعبُ والشجاعةُ ممتزجان كشرارةٍ واحدةٍ قبل الانفجار.

وقف سيف الملك في المقدمة، سيفهُ مسلولٌ، تلمع حافته بضوء النار، لكنّ عينيه كانتا تتحركان بسرعةٍ بين الجنود والحشد، كأنه يرى النهاية قادمة، ببطءٍ لا يُحتمل.

أحد الضباط اقترب منه، قال بصوتٍ مرتجف:

-"سيدي... إنهم بالآلاف، لا يتراجعون!"

لم يُجب سيف، كان يسمع شيئًا آخر... هديرًا بشريًا يتصاعد من الأعماق، يزداد اتساعًا، كأن المدينة كلها تتنفس غضبًا واحدًا.

وفجأة، دوّى الصوت من بين الجموع، صرخة أولى تبعتها عشرات، ثم مئات، ثم آلاف الحناجر تصرخ معًا:

-"ليسقط الظلم!"

اهتزّ الجسر، وارتجفت المشاعل.

الجنود نظروا إلى بعضهم، والخوف في أعينهم أوضح من النار.

رفع سيف يده محاولًا الحفاظ على صفوفه، وصاح بصوتٍ ملتهبٍ بالقلق:

- "اثبتوا! لا تطلقوا السهام حتى آمركم! اثبتوا أيها الرجال، ستنجح خطتنا!"

لكن الحشد لم يتوقف، كان يتقدّم، كأمواجٍ تبتلع السدّ حجراً بعد حجر.
كانت أصوات النساء تختلط بأصوات الرجال، وصراخ الأطفال يُقرع في صدر الليل كطبولٍ للثورة.
اقترب أحد الجنود الشبان من سيف الملك وقال بصوتٍ متهدّجٍ، والعرق يغمر جبينه:
- "سيدي... هؤلاء ليسوا أعداء، إنهم أهلنا!"
نظر إليه سيف نظرةً طويلةً، لم يجب، ثم قال أخيرًا، بنبرةٍ حزينةٍ لكن صارمة:
- "إن لم نحْمِ الجسر... فلن يبقى وطن نحميه."
ثم التفت إلى الجسر، ورفع سيفه عالياً، صوته يتشقّق في الريح:
-"أيها الجنود! فليقف السيافون في الصف الأول، والرماة من خلفهم! لا تَدَعوا الجسر يُكسر، فبكسره تُكسر المملكة!"
تقدّم الشعب خطوةً أخرى...
الليل كان شاهدًا على مواجهةٍ لا تشبه حربًا بين جيشٍ وأعداء، بل بين ملكٍ وشعبٍ قرر أن لا يخاف بعد الآن.

القمرُ تلك الليلة لم يكن قمرًا، بل جزءًا من عينٍ فضّية لم تكتمل بعد، تراقبُ نهايةَ عصرٍ كامل.

السماءُ كانت مشتعلةً بالضوء والرماد، وأصواتُ الناس، كبحرٍ يفيض من الغضب والدخان، نار القصر خمدت تقريبا، والحصار على الناس ما زال متواصلا...

ورغم ذلك، تتعالى أصواتهم من كل الأزقّة المؤدية إلى القصر.

في وسط كل هذا، كان أدريان، الفتى النحيل ذو الملامح الشاحبة، يركضُ وحيدًا عبر أنقاض السوق، قدماه تدمعان بالتراب، حتى وجد ربوةً صغيرةً مائلةً فوق تلٍّ صخري.

تسلّقها متقطع الأنفاس، ثم توقّف، يمدّ نظره إلى الأسفل، حيث يمتدّ القصر الملكي، يغتسل نصفه بضوء القمر ونصفه الآخر بالدم والنيران.

كانت الشعلات تتراقص على الأسوار، تصنع ظلالًا مشوّهةً لجنودٍ يتقاتلون، لأناسٍ يصرخون، لسماءٍ تلعن مَن تحتها.

أصواتُ الأجراس تختلطُ بأبواق الإنذار، والهواءُ مشبعٌ برائحة الحديد والعرق والدخان.

أدريان لم يرمش. لم يتنفس. شيءٌ ما في صدره ارتجف وهو يرى المنظرَ الذي لن ينساه ما عاش:

عند مدخل القصر، في فناءٍ تغمره المشاعل والدماء، الملك سيفاليوس مُكبّل اليدين، جالسٌ على ركبتيه، وجهه مغطّى بالرماد، والتاج ملقى بجانبه كحجرٍ لا قيمة له.

وخلفه، يقف شابٌّ تعرفه المدينةُ كالميت الذي عاد من ظلال الأرض، أو هكذا كان يُظنّ ميتًا.

شعره تخلله الغبار والدم، وسيفه يلمع تحت القمر كأنّه سكينُ العدالة التي تأخرت قرنًا.

رفع الشاب صوته الجهوريّ كالرعد، والناسُ من بعيد صمتوا حتى الأنفاس توقفت:

- "أنزلوا الجسر!!!"

ترددت الصيحة في كل ركن من المكان.

- "أنزلوا الجسر وإلا... سيُقطعُ هذا الرأس، رأسُ من صنع الطغيان!"

شهق أدريان، ويده ارتعشت على صدره.

لم يكن الصوت غريبًا... كان يعرفه، يعرفه كما يعرف صدى قلبه.

ومن بين ألسنة اللهب التي تحيط بالممرّ خرج سايمون، الطباخ العجوز، بثيابٍ محترقةٍ جزئيًا، يمسك بشعلةٍ في يده ووجهه مزيجٌ من الحزن والإصرار.

وقف إلى جانب فيساكا، ونظر نحو الأعلى، نحو برج الحراسة حيث يقف الجنودُ وسيف الملك نفسه.

صرخ سايمون بصوتٍ هادرٍ، تتقطّعه الأنفاس والدماء على وجهه:

-"لقد شبعتمُ من الطاعة العمياء!

لقد أطعمتمُ وحشًا حتى صار يلتهمكم!

اليوم... إما أن ينهض الشعبُ، أو تبتلعكم النار مع سيدكم!"

الجنودُ في الأعلى تراجعوا خطوة، وسيف الملك نفسه لم يتحرك.

عيناه كانتا مصفوفتين على المشهد، على فيساكا، على سايمون، وعلى الملك المكبّل الذي ينظر إليه بنظرةٍ خاويةٍ، لا تحمل ملكًا بل رجلاً عارياً من القوة.

نزلت لحظةُ صمتٍ، كأنّ العالم توقف عن التنفس.

ثم دوّى صوت فيساكا مرةً أخرى، أشدَّ من كلِّ رعدٍ في السماء:

-"أنزلوا الجسر، أيها الجبناء، أو سيُغلق هذا الليل على آخر ملوككم!"

رفع سيف الملك يده، ثم صرخ فيساكا:

-"مُر جنود الجسر بالنزول! "

صرخ سيف الملك في جنود الجسر بالانسحاب..

-"سايمون، هيا، تستحق أن تكون بطل الشعب! "

ثم يصرخ فيساكا في وجه الجنود:

-"ارفعوا أيديكم، وسلموا أسلحتكم! "

وتعلوا هتافات الشعب، المتحمسين لرؤية ما بداخل القصر..

رفع سيف الملك يده، ورمى الجنود سيوفه وأقواسهم..

أسرع سايمن، ليصعد في برج الحراسة، ويقطع الحبال..

ينزل الجسر، ويتدفق سيل هائل من الناس بقيادة فارين، باتجاه القصر..

لكن..

قبلَ أنْ يُقبض على سيف الملك، والذي كان فيساكا لا يحيد عينه عليه، رآى سيف الملك يقبض يده اليمنى...

اخترق سهم جسد فيساكا من الظهر إلى القلب، جندي يحمل قوسا من خلفه، صوب سهما بإشارة من سيف الملك...

سحب الكابتن السهم من قوسه باتجاه الجندي ليرديه قتيلا، ثم ذهب باتجاه فيساكا، الذي غرس سيفه في قلب الملك، وهو يسحق عظامه، سيف فتى يبتسم ابتسامة شيطانية مليئة بالرعب كأنه ليس من عالم البشر... وكأن صراخ الملك علا على صراخ الناس...

ابيضت عيون الملك، ونهض فيساكا، يمشي ببطء، ينظرإلى يده المطلخة بدمائه، يسير نحو الجندي الذي قتله، مشيرا بيده إلى الكابتن غريمور، أن يتركه..

وصل فيساكا إلى الجندي، الذي مات من سهام غريمور، ملامح مألوفة...

حفظ فيساكا تلك الملامح من سنين، ثم ابتسم..

سقط فيساكا بين يدي غريمور، مبتسما، ثم قال:

-"إنها معجزة القدر، قتلني من أنقذني قبل سنوات، ما زلت تذكر ملامح،ه آسف، كابتن، لم أسدد لك دينك بعد، لكنني نجحت، سأقابل والداي الآن، ثم سأسدد لك دينك، في الحياة الأخرى.."

-" اصمت،لا تتحدث كثيرا،اصمد يا فتى!"

-"كابتن، ابحث عن فتى اسمه أدريان، أريدك أن تخبره، أن الشمس أشرقت العالم الذي حلم به"

AVA